روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

16

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

Looloo
www.dvd4arab.com

بداية

﴿ ويسألونك عن الروحِ قلِ الروحُ من أمر ربّى وما أُوتيتُمْ من العلمِ إلا قليلاً ﴾

(سورة الإسراء ، الآية ٨٥)

ليست مقدمة ، مجرد تحية !

لم تنته قصتى مع (إخوة الدم) بعد ..

بل ، لعلها لم تبدأ من الأصل !

الكثير من العبث واللامعقول والرؤى والأحلام المتداخلة ..

الكثير من الذكريات والآلام والحقائق الخفية ؛ غير المفهومة وغير المتوقعة ..

والقليل للغاية من المنطق والعقلانية !

لاتنتظروا منى الآن مذكرة تفسيرية لما حدث فى الجزء الأول ..

لاتنتظروا منى حلولاً جاهزة ، أو مُرضية ..

أو أن أكشف كل أوراقى مرة واحدة ..

بل ولا تنتظروا حتى تلخيصًا مقتضبًا أو سريعًا لما تم هناك ، فالأحداث غير قابلة للاختصار أو السرد فى جمل قصيرة ، مهما كانت هذه الجمل بارعة و معبرة ..

ذلك لأنها أحداث فريدة ، من نوع خاص جدًا ..

لن أدافع عن نفسى كما اعتدت أو كما اعتدتم منى على الدوام ، ولن أقول إننى لا أدعى أو أقوم بالدعاية لنفسى أو للسيد (س) ، ولن أهز كتفى فى لامبالاة وأقول : إنه رأيى وأنا حرة فيه !

كلاّ ...

لقد فات أوان هذه العبارات الصبيانية التى أحاول لفت انتباهكم بها ، والتى قد تجذب أكبر عدد لتصفح الكتاب ومطالعة محتواه ولو من باب الفضول وحب الاستطلاع ، متسائلين بينكم وبين أنفسكم : من هذه المجنونة التى تتحدث بهذه الطريقة ؟! ومن هذا السيد الذى تتحدث عنه بهذا الغموض ، والذى اختارت له ـ الأصح أنه اختار لنفسه ـ هذا الاسم الغريب المكون من حرف أبجدى واحد ؟!

ذلك الحرف الشهير الذى يستخدم للدلالة على الكم المجهول فى الرياضيات ..

حرف (س) !

نعم ، لا وقت الآن لهذا الترف البلاغى ، أو لهذه المقدمات التى احترقتم منها مللاً (على الأقل أنا احترقت !) ..

هذه ليست مقدمة أخرى إذن ، بل هى مجرد تحية لابد منها كما تقضى قواعد الذوق وبروتوكولات التهذيب المتعارف عليها ..

ثم ..

لنبدأ على الفور فى وصل ما انقطع ..

هأنذا أمسك بطرف الخيط .. وأبدأ فى نسج الكلمات فوق السطور ..

وهأنذا أبدأ من حيث انتهيت ، هناك فى عالم لاوجود له ، حيث يفنى كل شىء فى كل شىء ، وحيث الأحلام تولد من رحم الأحلام ..

هأنذا أدعوكم ، ولتتفضلوا معى ..

يحكى أنه يا سادة يا كرام ...

* * *

هنـــاك ..

الشمس رمادية ، والأفق يتلألأ فى رداء من الفضة الناعمة ..

وحدى أسير على جسر من الخشب ، يترنح فوق هوة عميقة ، ويمتد من ضفة اليابس الخشن إلى أعتاب القصر المخيف ، الشامخ فوق التبة ..

لم أكن أنا ..

لم أكن (نسرين) ..

كنت ذلك الكائن الشفاف ، المتنقل بين عوالم الحقيقة والخيال ؛ دون كيان مادى ..

لكن روحى توقن بأننى هنا ..

وأن لى وجودًا ما !

السماء من فوقى غاضبة ، تنذر بعواصف رعدية وسحابات حبلى بأمطار وبروق ..

وبالأسفل بحيرة من حمم ونيران برتقالية جوعى لما تلتهمه ..

وأنا ..

وحيدة على الجسر المتهالك ، المترنح فى قوة بفعل الريح الصرصر العاتية ..

لم أكن خائفة ، ولم يعرف الرعب طريقه إلى قلبى ..

على العكس ، كنت أعرف طريقى جيدًا ، وأسير نحو هدف محدد ..

القصر الضخم ، القائم فى شمم وإباء على الناحية الأخرى ، عند منتهى الجسر ..

القصر الغارق فى الظلام ، المتدثر بعباءات الغموض السرمدى ، والذى يطاول بقمة برجه الجانبى عنان السماء ، مناطحًا للسحاب الذى ما برح يزداد دكنة وسخطًا ، والذى بدأ يرسل قطرات ضئيلة من مطر ..

ما الذى أتى بـ (قصر البارون) إلى هنا ؟!

إلى عالمى الخاص الذى تمتزج فيه الأسطورة بالحلم ، ويختلط فيه الخوف من الواقع ؛ بالواقع المخيف ؟!

لست أدرى ، وإن لم يكن التوقع بهذه الصعوبة التى يبدو عليها الأمر !

لم أشعر بالبرودة ..

لم يتطاير شعرى القصير بفعل الريح ، ولم يسقط منظارى من فوق أنفى ..

لم أبتل عندما قصف الرعد وأنار البرق وأضحى السحاب مدرارًا ..

ولم أخش السقوط فى جهنم المستعرة بالأسفل ..

واصلت سيرى نحو القصر سابحة فى الهواء ..

وشعرت بأنى أقترب للغاية من مبتغاى ، الذى لا أعرفه بعد !

لكنى أقترب .. وأقترب .. وأقترب ..

هل من أميرة أسيرة محتجزة فى برج القصر ؟!

ربما ، لكنى لا أصلح أبدًا فى دور الفارس المخلص !

هل يستقبلنى الكونت (دراكيولا) بنابيه الشهيرين عند البوابة ؟!

ربما ، لكن الأمر يتجاوز هذا الرعب الطفولى بكثير !

ماذا فى الأمر إذن ؟!

اسألوا البوابة التى تفتح مصراعاها فجأة بصرير مزعج ..

اسألوا الضوء الباهر الذى انبعث من الداخل ليعشى عينىَ قليلاً ..

اسألوا الصوت الذى انبعث جهوريًا ، أجشَّ ، ومزلزلاً ، على خلفية من موسيقى وهتاف حاد ..

- رائع ، لقد وصلت إلى هذا الحد إذن ..

وإن لم يعطكم أى منها إجابة شافية ..

- .. إنك جديرة حقًا برؤية الحقيقة ، التى سقط الباحثون عنها ضحايا ؛ على جانبى طريق الآلام الطويل ..

فاسألوا ذلك الظل الماثل أمام الضوء ، الذى يجسد رجلاً بلا ملامح ، يشير بسبابته نحوى ، فى حين استندت يده الأخرى على خصره ..

- .. يا صغيرتى !

* * *

البهو الواسع يضج باحتفال صاخب ..

موسيقى (الفالس) تعزفها فرقة ؛ يرتدى أعضاؤها الحلل الأنيقة ، والمدعوون يخلصرون المدعوات لتبدأ وصلة من الرقص الراقى السريع فى المنتصف ، أمام السلم العريض المؤدى للأعلى ؛ حيث (بورتريه) زيتى لرجل سمين ، كث الشارب ، يرتدى الطربوش الأحمر ، وتستقر على عينه اليسرى عدسة دائرية ..

المكان لم يعد (قصر البارون)، لكنها قاعة واسعة تليق بأثرياء لهم تاريخ عتيد، وجذور ضاربة فى تربة الحسب والنسب ..

لم يرنى أحد وأنا أسير بين المدعوين والراقصين بخفة قطة، ورشاقة غزال، ونعومة ثعبان شاب!

لكنى رأيت كل شىء ..

وكل شىء سمعت!

ـ لاحتفال أسطورى حقًا، تمامًا كما كتبوا فى بطاقة الدعوة!

قالتها شابة مبهورة بالجو الذى وجدت نفسها فيه، مخاطبة صديقتين واقفتين على جانبيها، وكل منهما تمسك بكأس يستقر فى داخله سائل أحمر رائق، التقطتاه فى خفة من فوق صينية فضية؛ عبر بها خادم يرتدى الزى الرسمى القديم ..

ـ زفافى سيكون أفخم من هذا!

قالت إحدى الصديقتين وهى ترشف من كأسها فى حسد واضح، فعاجلتها الأولى بالقول وهى تدفعها فى كتفها:

ـ ومن أين لك بعريس من عائلة عريقة مثل عائلة (خورشيد)؟!

قالت الثانية ضاحكة وهى تشير إلى ثالثتهن؛ التى جرعت كأسها دفعة واحدة دون أدنى قدر من اللياقة:

ـ (ألفت) خير من يجيبك عن هذا السؤال!

غمزتها الأولى وقالت:

ـ هذا إن لم تلتهم الغيرة قلبها أولاً ..

رأيتها وعرفتها، أصغر سنًا ودون مناظير دقيقة تستقر على عينيها المحمرتين، كجمرتين خبيثتين!

هذا حفل زفاف إذن ..

حفل جعل قلبها يحترق فى جحيم الغيرة ..

القاتلة ..

حفل زفاف أبى وأمى ـ سليلة عائلة (خورشيد) العريقة ـ بلاريب، ودون الحاجة إلى عقل إلكترونى جبار ..

حق الدهشة مكفول للجميع، فأنا ولا فخر واحدة من القلائل الذين سنحت لهم الظروف بحضور زفاف الأب والأم قبل حتى أن يولدوا (!) ..

فكرة مجنونة ..لم تكن لتتحقق إلا فى وجود جماعة غريبة مثل (إخوة الدم) داخل حياتى، ربما حتى من قبل أن أولد!

سمعت (ألفت) تغمغم فى سخط :

ـ سترون جميعًا !!

وسمعت الصديقتين تشتعلان بالضحك المكتوم ، ثم سرت بين المدعوين والراقصين الذين لم يشعروا بوجودى ، غير الموجود أصلاً !

ليس من السهل أبدًا أن تشعر بأن هناك روحًا هائمة تسير بجوارك ، قادمة من مستقبل يبعد عنك بمسافة زمنية قدرها سنون طويلة ، وبطريقة تجهلها الروح نفسها !

لست أعرف الكثيرين فى هذا البحر الأسود والأبيض من البشر ـ رجالاً ونساءً ـ لكن الوجوه كانت مألوفة بعض الشىء ؛ مثل وجوه (إخوة الدم) الذين احتفلوا بى منذ قليل فى قبو القصر القديم ..

(قصر البارون) ، الذى أسير بداخله الآن قادمة من مكان ما !

دعونى لا أسترسل فى الأفكار والخواطر حتى لا أربككم وأربك نفسى أكثر ..

الهمسات كثيرة ، والغمزات أكثر ، والحوارات الجانبية تعبر أذنى فى سلاسة ، لكن أغلبها لم يسترع انتباهى ..

القليل منها ، والقليل جدًا فقط ، كانت لها هذه القدرة !

ـ هذا الفتى محظوظ منذ كان فى المهد صبيًا ..

قالها رجل أشيب يرتدى حلة نصف فاخرة ، محادثًا شابًا متمردًا على بروتوكولات المناسبات الخاصة ، بحضوره فى ملابس السبعينات المميزة ؛ قميص مشجر وبنطلون شارلستون وشعر ضخم لم يحلقه منذ شهور طويلة ..

قال الشاب وهو يبتسم ابتسامة صافية جعلتنى أميز ملامحه على الفور :

ـ قل إنه وُلدَ وفى فمه ملعقة ماسية ، ولن يجانبك الصواب كثيرًا يا عماه ..

إنه عمى (ممدوح) ..

هو كما لاتخوننى عيناى ، لكنه أصغر كثيرًا ، إذا لم يحفر الدهر بإزميله القاسى التجاعيد المتغضنة ؛ على ملامح وجهه بعد !

قال الرجل الذى خاطبه بـ (عماه) ، هو شقيق جدى الذى لم أره إن كان للفظ معناه الحرفى :

ـ ألا تنوى الإقدام على فعلها قريبًا ؟!

الزواج هو ما يقصده الرجل الأشيب دونما شك ، وها هو ذا عمى يلتقط كأسًا من (الشربات) ويجرعه ؛ ثم يقول باسمًا فى مرح :

ـ أبعد اللّه الشر عنا يا رجل !

ابتسم الأشيب ، وتناول كأسًا بدوره ثم قال :

ـ كل الشباب يقولون هذا ، لكنهم يزدادون عقلاً بمرور الأيام ..

هتف عمى ـ باعتبار ما سيكون ! ـ فى نبرة صنعت نشازًا مع جو الحفل الهادئ الحالم :

ـ بل قل يزدادون جنونًا !

ونظر إلى سطح (الشربات) الرائق قبل أن يرف فى غرور :

ـ .. لن أتزوج إلا إذا وجدت من تركع تحت أقدامى دون شروط مسبقة !

المسكين ، لا يعلم بما يخبئه له الدهر من مفاجآت !

ها هو ذا يرفع الكأس ، وقبل أن تلامس حافته شفتيه يصطدم كوعه بمار دونما قصد ، فتغرق (الشربات) بلونها الأحمر القانى ملابسه فى تناقض ساخر ..

لم أستطع متابعة تطور الأمر ، لأننى مثل كل المدعوين توجهت ببصرى نحو السلم العريض فى صدر البهو ، والذى اصطف على جانبيه رجال فى ملابس لامعة متشابهة ؛ ينفخون فى أبواق أصدرت موسيقى مزعجة ..

ثم ظهر العروسان ، برزا فجأة كما يبرز النور من قلب الظلام ، وكما تبرز الشمس من بين الغمام ، وكما يبرز الصمت من سيل الكلام ..

كانت تتأبط ذراع الرجل صاحب الصورة الزيتية الكبيرة ، والذى لم تختلف هيئته كثيرًا عن الصورة الكبيرة إلا فى كونه أكثر أناقة وبدانة ..

هابطة من أعلى ، تخطر فى فستانها الأبيض الرائع ، وجهها مختف خلف قناع شفاف من التل ، لكن فتنتها استطاعت اختراق هذا الحاجز الواهى لتسحر الموجودين جميعًا ..

وصاعدًا من الأسفل ارتقى فارس الأحلام الدرجات فى حلة باهرة ، حتى التقيا عند منتصف السلم العريض ، فتأبطت ذراعه ، وتركها البدين الأنيق قائلاً فى سرور :

ـ مبارك لكما ..

قال أبى :

ـ شكرًا يا عمى العزيز !

وقالت أمى :

ـ بارك اللّه فيك يا أبتاه !

لكن صوتها جاء مبحوحًا متقطعًا غارقًا فى الخجل والحياء ..

وكنت بينهما ، لكنهما لم يشعرا أبدًا بوجودى ..

أردت أن أصف لهما مبلغ سعادتى بلقائهما ؛ الذى سيكون بمثابة إرهاصة مقدمى إلى هذا العالم المفرط فى القسوة والظلم والظلام ..

لكنى لم أستطع ..

خفق قلبى المضطرب بشدة عندما امتدت يده لترفع قناع التل عن وجهها ؛ الذى سطع كألف نجمة تدور فى مجرة غير بعيدة ..

فكرت فى حمل طرف الثوب الطويل المتدلى على السلم من خلفها ، مع قطيع الأطفال الذين يحملون فى يدهم الأخرى

شموعًا بيضاء طويلة ومتقدة ، بعد أن سارت مع أبى الهوينى يهبطان الدرجات ..

كدت أفعلها عندما ..

لمحت ذلك الظل بطرف عينى ، واقفًا عند نهاية الدرج بالأعلى ..

الظل الغارق فى السواد ..

المتشح بأردية الحزن برغم إحجامه الأبدى عن الظهور ..

أو الحضور ..

أو التجلى ..

الظل الذى بمجرد أن فطن إلى أننى قد رأيته ، استدار وسار بعيدًا فى خطوات سريعة مهرولة نحو الممر المفضى إلى اليسار ..

ولأننى فى كل الأحوال (نسرين الجبالى) ، فقد قررت أن أترك كل شىء خلفى ..

وأن أهرع على الفور خلف الرجل الظل ..

الغامض ..

الموجود بلا وجود .. والمختفى خلف ستائر العدم السرمدى !

(هل قلت هذا الكلام من قبل حقًا .. نكرونى إذن ألا أقوله فى المستقبل حتى لا يحتضر أحد القراء مللاً !) ..

* * *

ظلام ..

وسباحة فى تيار المجهول ..

ومسافات أبعد من قدرتى اليسيرة على الاجتياز ..

.. والدرب أطول من طويل ..

دهليز يتراءى فى نهايته الظل ..

يدعونى للاقتراب ..

فأدنو دون توقف ..

حتى يتلاشى ،وكلماته صدى يتردد فى وديان أننى الداخلية :

ـ ألم تتألمى حتى الآن بما فيه الكفاية ؟!

لم ينتظر جوابًا ، لكنه دفعنى لدخول إحدى الحجرات ذات الأبواب المغلقة على جانبى الدهليز المظلم ..

اتفتح الباب فى وجهى فجأة ، واندفعت إلى الداخل بالقصور الذاتى ..

ووجدت نفسى فى غرفة أعرفها جيدًا ..

عيادة أبى القديمة قبل أن يغلقها منتقلاً إلى مستشفاه الخاص الكبير ..

لكن ..

الضوء أكثر نعومة ، مما جعل المنظر أشبه بحلم ضبابى ..

أو أشبه بالصورة التى نراها عبر المرشحات الضوئية البيضاء فى أفلام السينما ومسلسلات التلفاز الحديثة ..

وهناك ؛ أمام مكتبه الذى يتوسط الحجرة ، جلست (ألفت همام) الشابة تقضم أظفارها ، وتنقر بأصابع اليد الأخرى على السطح الزجاجى ، منفسة عن التوتر المرتسم جليًا فوق ملامح وجهها ؛ الذى ما عدت أطيق النظر إليه ..

هأنذا أدنو شيئًا فشيئًا من الحقيقة التى تريدين لى معرفتها يا أماه الغالية !

أنت التى أرسلت بى إلى هنا ..

إلى مجرى الزمن العكسى ، لأرتد نحو منابع الماضى العذبة النميرة ..

فأعلم كل شىء تريدين لى معرفته مع حفظ الأسباب .. ٤

أنت بالتأكيد !

سأعرف الآن ما كان بين هذه المرأة وأبى ، وأستريح من عذاباتى الدفينة ..

وأريحك أيضًا ..

لم تطل وقفتى أمام الباب ، حتى اندفع أبى ـ الأكثر يفوعًا ـ من خلال كيانى الشفاف إلى الداخل ، مرتديًا معطفه الأبيض المميز ، ومتجاوزًا إياى ببضع خطوات ..

ثم توقف كأنه بوغت بمرأى (ألفت) ..

نهضت (ألفت) من جلستها فى بطء شديد ، وعلى وجهها أقصى علامات التجهم ..

والمرارة تقطر مصفاة من ناظريها ..

ـ أهلاً يا دكتور !

قالتها فى تردد والكلمات تتعثر وتتكسر على أعتاب شفتيها ، وبرغم أن وجهه لم يكن أمامى ، إلا أننى ـ وبطريقة أجهلها ـ رأيت وجه أبى وقد علاه تعبير عدم الترحيب ، وسمعته يقول فى لهجة تنضح جفافًا وجفاءً :

ـ مرحبًا .. ما الذى أتى بك ؟

واستدار جالسًا على مكتبه ، فى حين وجدت نفسى جالسة أمام (ألفت) على المقعد المقابل للمكتب ، شاعرة بشىء من الراحة الداخلية إذ يعاملها بهذا الشكل !

نادرًا ما يتحدث بفظاظة هكذا مع أحد .. إنه حلو اللسان مع الجميع بلا استثناء ، إلا إذا ...

ربما قتلت له (ألفت) أحدًا !!!

قالت (ألفت) وهى تعاود الجلوس ، مبتلعة الإهانة بصعوبة :

ـ جئت أعتذر !

هتف بها مستنكرًا :

ـ تعتذرين ؟! عن ماذا ؟! عن جريمة ؟!

فركت جبهتها بأصابعها وهى تقول :

ـ صدقنى يا دكتور ، لم أقصد أن ...

قاطعها فى انفعال لم أره يبلغه فى حياتى من قبل :

ـ عذر أقبح من ذنب يا سيدتى .. هذه الأمور ترتكب عن عمد كامل حسبما أعتقد !

حاولت أن تقول مجددًا :

ـ لكن (سعاد) ...

صاح فيها :

ـ لا تنطقى باسمها على لسانك ، وانسى أنها كانت صديقتك فى يوم من الأيام !

احمر وجهها من فرط ما لاقته من تقريع عنيف ، ونهضت دون أن تحول بصرها عن أبى ، ثم قالت فى نبرة خفيضة ذات إيقاع واحد :

ـ أقدر ما تعانيه من حزن وألم يادكتور ، وأقدر أيضًا قسوة ما فعلته لذا أحتمل كلماتك عن طيب خاطر .. لكن ، لا تنس أننى أعمل فى مهنة لا قلب لها ولا عاطفة .. قد تتهمنى بالبرود وقد ترى ما فعلته جريمة نكراء ، هذا حقك .. لكنى لا أراه أكثر من واجب لم أقصر أبدًا ، ولن أقصر مطلقًا فى أدائه ..

لم يرد أبى ، وسدد نظرات يطفح منها الحزن والألم إلى الأرض ، فى حين تابعت (ألفت) بلهجة واثقة حتى الموت :

ـ .. لقد كان خطؤك يادكتور .. لابد أن تملك الشجاعة الكافية لتعترف بهذا ، ولا تلجأ لحيل علم النفس الدفاعية فى إسقاط ذنبك على مرايا الآخرين ..

لم يرد ، وشعرت بأنه يهتز فى جلسته تحت وطأة مشاعره الدفينة ، وأكملت (ألفت) وقد ازدادت الثقة فى لهجتها إلى درجة التحدى :

ـ .. أما بالنسبة لـ (سعاد) ، فالرابطة التى بينى وبينها أقوى وأشد من أن تفسد برغبتك أو برغبة غيرك يادكتور .. وستبقى إلى الأبد ، حتى بعد أن نموت !

وعندما استدارت منصرفة ، ساءلت نفسى :

ـ .. ألقاك على خير يا .. يادكتور !

.. ترى ، هل حقًا رأيت جرحًا قطعيًا طويلاً وملتئمًا على إبهامها الأيسر .. أم أننى أهلوس هنا أيضًا ؟!

لست واثقة ..

ما أثق فيه تمام الثقة هو أن أبى كان فى اللحظة يهتز من فرط النحيب المكتوم ..

وكانت المرة الأولى والأخيرة التى أراه فيها طوال حياتى .. يبكى !

* * *

رباه ..

هل قتلها ؟!

هل كان الخطأ الذى تعنيه هذه المرأة هو إسهامه بشكل أو بآخر فى قتل زوجته ؟!

هل تواطأت معه ، أوعملت تحت إشرافه ؟!

هل خططا معًا لشىء ما كان نتيجته الحتمية موتها ؟!

رباه !

* * *

ظلام ..

وسباحة فى تيار المجهول ..

ومسافات أبعد من قدرتى اليسيرة على الاجتياز ..

.. والدرب أطول من طويل ..

الصوت فى آخر الدهليز الطويل مازال يحادثنى من طرف واحد :

ـ صغيرتى ، الحقيقة دومًا سوداء كقلب شيطان ..

.. ومازال يدعونى لولوج غرفة أخرى ينفتح بابها الموصد أمامى ..

ـ ومؤلمة ، كشوكة فى الظهر ..

.. وهل من بديل سوى الامتثال ، والدخول دون شرط .. ودون شعور ؟!

ـ أو كقطعة زجاج فى الحنجرة !

هذا المكان أيضًا لا أجهله ..

إنه مطبخ المنزل الذى أعيش فيه ، والذى صنعت فيه صباحًا غدائى ؛ للمرة الأولى منذ جئت إلى هذه الدنيا ..

ذرات الضباب الأبيض الشاحب مازالت معلقة فى جو المكان ، و (ألفت) مازالت جالسة ، منكسة رأسها على طاولة الطعام الصغيرة فى الركن ..

دخلت (سعاد) حاملة عددًا من الأطباق الفارغة النظيفة ، ترتدى ملابسها المنزلية البسيطة ، وتدفع بطنها المنتفخ أمامها ..

تجاوزت وقفتى أمام المدخل ، ولم تنتبه لوجودى الشفاف من الأصل ..

فكرتُ أن أناجيها .. أن أمد يدى وألمس وجنتها الناعمة الرطبة .. أن أندس فى حضنها المحرومة منه إلى الأبد ..

لكنى أحجمت ، فلم أكن قد نسيت حقيقة وجودى ها هنا ، كمتفرجة فقط ..

أو كشاهدة أخيرة ، على جريمة ؛ مازلت أجهل عنها الكثير !

ـ دعينى أحملها عنك ..

قالتها (ألفت) ناهضة بمجرد أن انتبهت لوجودها ، وقد مدت ذراعيها عن آخرهما نحو الأطباق ، لكن أمى ناورتها مبتعدة بما تحمله عنها وهى تهتف ضاحكة :

ـ اتركينى أمارس بعض النشاط ، لقد كدت أتلاشى كسلاً !

وسارت نحو دولاب الأدوات المنزلية ، بينما قالت (ألفت) بلهجة ذات مغزى :

ـ ألم ينصحك الدكتور بعدم حمل أشياء ثقيلة ؟!

قالت أمى مغتبطة وهى ترتب الأطباق داخل الدولاب فى نظام :

ـ أعطانى قائمة طويلة من النصائح الذهبية ، بل واشترى لى كتبًا متخصصة .. لديك على المنضدة واحد منها ..

رفعت (ألفت) بيدها الكتاب المصور الكبير ، وضيقت عينيها لتقرأ عنوانه مغمغمة :

ـ (كيف تعتنين بطفلك فى عامه الأول ؟) .. رائع !

فى سعادة بالغة قالت أمى وهى تغلق الدولاب :

ـ لن تتصورى كيف يغير الحمل الأول حياة الزوجين ..

واستدارت نحوها متابعة :

ـ .. لقد أصبح هناك من هو أهم منهما فى الحياة الآن !

حاولت (ألفت) أن تبتسم وهى تقول :

ـ ربما أفهم ذلك حقًا فى يوم من الأيام ..

تجاهلت أمى الطيبة مغزى عبارتها ، وقالت متجهة نحو الثلاجة :

ـ ستتناولين الغداء معنا اليوم ، أنا و (فاروق) ..

وشرعت تفكر فى ماستطهوه وهى تجول بناظريها داخل محتويات الثلاجة المتراصة فى استكانة ، بينما قالت (ألفت) ولهجتها تترنح بين الإقدام والإحجام :

ـ أ .. أخشـ .. ى .. أ .. أن .. الـ .. دكـ .. تور ...

قاطعتها أمى وهى تخرج شيئًا ما من الثلاجة لم أستبن كنهه ولم أهتم :

ـ لاتخشى شيئًا .. (فاروق) لايعترض أبدًا على وجودك معنا فى أى وقت .. تأكدى من أن هذا لايضايقه مطلقًا !

قالت (ألفت) متصنعة الدعابة :

ـ عهدى به أنه يمقت الصحافة والصحفيين !

أومأت أمى برأسها ، وقالت متجهة نحو الموقد :

ـ إنه كذلك بالفعل ، لقد حاولت معه مرارًا أن يسمح لك بإجراء مقابلة معه لكن رفضه قاطع وصارم فى كل مرة .. يقول لى دومًا : إننى لا أرفض (ألفت) كشخص ، لكنه مبدأ .. الصحافة تعنى الشهرة ، والشهرة التى تتجاوز الحدود هى مقبرة النجاح لأى طبيب !

غمغمت (ألفت) لنفسها :

ـ تفكير عجيب !

لم تسمعها أمى ، وتابعت حديثها وعملها المطبخى الذى يشف عن احترافية :

ـ .. لكنه أثنى مرارًا عليك وعلى شخصيتك ، بل وعلى كتاباتك فى (الهلال) و (آخر ساعة) .. ولا يتعامل معك أبدًا من منطلق كراهيته الشخصية للصحافة .. خاصة وأنك صديقتى الوحيدة ـ يا (ألفت) ـ فى هذا العالم القاسى الموحش ، الذى يزداد فى كل لحظة قسوة ووحشة !

قالت (ألفت) متصنعة الود :

ـ خاصة وأننا صديقتان منذ الإعدادية ..

ـ سنون طويلة ..

ـ الأيام تمر كالقطار السريع الذى لايتوقف أبدًا ..

ـ نعم ، وعلى قضبانه تداس كل اللحظات الجميلة ، وحتى الذكرى لم يعد لها فى القلب مكان ..

ـ فيم كل هذا الحزن والتشاؤم ؟!

تنهدت (سعاد) ، وقالت متحسسة بطنها بأناملها :

ـ موعد الولادة أضحى دانيًا بشدة ..

ـ لا أرى هذا مدعاة لما تقولين ..

ـ نعم .. ولكن .. لا أدرى .. كلما اقترب الموعد أزداد توترًا .. والأمومة تجربة جد مرعبة !

ـ إلى هذه الدرجة ؟!

ـ وأكثر ..

ـ أشعر بأنك ستنجبين بنتًا ..

ـ بنتًا ؟!

ـ وستكون جميلة ورقيقة كأمها !

أطرقت أمى للحظة كأنها تستجمع خاطرة ما ، ثم قالت وقد علت شفتيها بسمة باهتة :

ـ أما أنا فأشعر بأنه سيكون ولدًا !

هزت (ألفت) كتفيها وقالت ببساطة :

ـ ليكن ما يكون ، المهم أنه سيكون رابطة أخرى تجمع بينك وبين (فارو .. أقصد الدكتور (فاروق) !

ترقرقت طبقة دمعية لامعة فى مقلتى (سعاد) / أمى ، وغمغمت وهى تشبك كفيها أمام صدرها فى رجاء :

ـ كل ما أتمناه من صميم قلبى ألا يعيش حياته تعسًا مثلى ..

وتنهدت فى عمق ، أغلقت عينيها ، واهتزت انفعالاً وهى تتابع :

ـ .. وألا أجنى عليه ..

واشتعلت عينا (ألفت) ، فأصبحتا كجمرتين خبيثتين ، بينما أردفت (سعاد) دون أن ترى ما أراه :

ـ .. بما أعانى !

ثم ..

★ ★ ★

كانت تعانى شيئًا ما إذن !

و ...

★ ★ ★

ظلام ..

وسباحة فى تيار المجهول ..

ومسافات أبعد من قدرتى اليسيرة على الاجتياز ..

والدرب أطول من طويل ..

الظل فى آخر الدهليز ما برح ينادى ، مشيرًا إلى باب موصد آخر :

ـ هنا يا صغيرتى كانت .. بداية النهاية ..

وانفتح الباب ..

ـ .. أو ، نهاية البداية !

ودخلت ..

المكان غير مألوف هذه المرة ، وإن لم يكن من الصعب استنتاج كنهه ..

غرفة عمليات جراحية ..

الكشافات الضخمة فى السقف ، أسفلها سرير تتحلق حوله كائنات طبية خضراء ، وعشرات من آلات المتابعة المتناثرة حولهم ، والصفارة المتقطعة المميزة لرسام القلب الآلى ..

أقترب أكثر ، فأرى أوضح ..

الممرضات والأطباء الصغار المساعدون ، عشرات من المشارط والمقصات ، برك من الدم الأحمر القانى ..

وفى المنتصف نجم الليلة ..

أبى ..

عرفته من عينيه الظاهرتين أعلى قناع وجهه المعقم ، كان يجاهد للسيطرة على أعصابه وهو يصنع الفتحات داخل جسد

عرفته من عينيه الظاهرتين أعلى قناع وجهه المعقم ..

المريض المغطى تمامًا ، والذى لايظهر منه إلا الجزء الذى يعمل عليه أبى ..

لم أحتج للكثير من الذكاء حتى أخمن شخص المريض !

ولم أحتج للكثير من البراعة لأفهم أن أبى يكابد موقفًا حرجًا ، فقطرات العرق تنداح على جلده المشدود ، وكلما مسحت إحدى الممرضات بعضه بمنديل ، عادت القطرات ترشح وكأن المسام تفجرت سيولاً ..

أيضًا كان يرتجف !

لم يكن من السهل أن ألاحظ هذا ، فهو يعمل بكل ما أوتى من مهارة ، لكنها رعشة خفيفة رأيتها بصعوبة وهو يمد يده نحو حقل العمل ، سرعان ما اختفت بعد شروعه فى العمل فعليًا .. على أى الأجزاء يعمل من جسد المريض ؟!

لم أر ، ولم يكن هناك وقت للتأكد ..

فجأة ..

تحولت الصفارة المتقطعة لرسام القلب إلى صفارة واحدة متصلة .. وطويلة ..

ولأننى لست جاهلة طبيًا ، ولأننى مشاهدة جيدة لحلقات

(غرفة الطوارئ) ، ولأننى قارئة جيدة لـ (سافارى) ، فلم يكن من الصعب علىَّ أن أفهم ما يعنيه الأمر ..

وتكهرب الجو داخل الغرفة ..

هرول الأطباء الصغار فى كل ناحية ، وضربت الممرضات أخماسًا فى أسداس ، وواصل نجم الليلة عمله وكأن شيئًا لم يحدث ..

مر وقت ، ولم تنقطع الصفارة المتصلة الطويلة ..

ولم تتبدل ..

ولم يتوقف نجم الليلة عن عمله الدقيق .. جدًا ..

ـ دكتور (فاروق) ..

لم يتوقف ..

ـ دكتور (فاروق) ..

واصل عمله الدقيق وكأن شيئًا لم ...

ـ لقد انتهى الأمر ..

لم يستجب ، ولم يتوقف ..

ـ دكتور (فاروق) ..

لم ..، ولم ..، وواصل عمله الدقيـ ...

ـ لقد مات المريض ..

هنا توقف ..

تصلبت يده الممسكة بالمشرط فجأة وسط بركة الدم الأحمر القانى ..

ـ .. لقد مات المريض ..

عم السكون بعدها ، ولم ينبس أحد ببنت شفة ..

اكتسب الموقف جلاله المفترض ، وأطل الحداد ممتزجًا بالشفقة والتعاطف من عيون الجميع ..

ـ .. مات !

ووسط بحر العرق الذى يسبح فيه وجه أبى ، لمحت قطرة تسيل من عينه ..

قطرة مختلفة ..

وحزينة ..

وثكلى ..

و ....

* * *

ما زلت هناك ..

كانت تعانى من شىء ما إذن ..

وماتت فى غرفة العمليات !

* * *

الدهليز المظلم ..

والظل فى نهايته يشير نحو باب آخر ينفتح رويدًا رويدًا :

ـ الزمن يا صغيرتى هو اسم اللعبة ..

وتمنيت لو أطرح عليه آلاف الأسئلة ..

ـ .. الرهيبة ..

أو حتى سؤال واحد ، يكون بمثابة قطرة تطفئ ألسنة النار التى تأكلنى ..

أو لعلها ترطب حلقى الجاف من هول ما أرى ..

وأسمع ..

لكنه تلاشى سريعًا ..

بالإضافة إلى فقدانى التام للقدرة على فتح وتحريك لسانى ..

(لم أكن أعرف أن الأرواح الهائمة عاجزة عن الكلام قبل الآن ..

الآن فقط عرفت !)

وانسبت بكيانى الشفاف إلى الحجرة الغارقة فى ضباب مرشح الضوء الأبيض ..

هذا من الأماكن التى أعرفها جيدًا ، بل قل أحفظها عن ظهر قلب ..

إنها صالة منزلنا بأثاثها القديم الذى تجلى لى فى رؤيا سابقة ..

ورق الحائط والمكتبة الأصغر والتلفاز الأعتق ؛ لو كنتم مازلتم تذكرون ..

وأبى جالس على الأريكة ، ممددًا قدميه فوقها ، وعلى الأرض حذاؤه ومعطفه ..

لم أشعر بالبرودة ، لكنه شتاء ؛ بدليل المعطف والأمطار التى تهطل بغزارة فى الخارج ؛ والتى أستطيع رؤيتها بوضوح عبر زجاج الشرفة ..

وبدليل آثار الأقدام الموحلة ؛ التى توحى بأن أبى قد أتى من الخارج من فوره ..

قسماته توحى بإرهاق قاتل ..

وبحزن أعمق من عميق !

صوت مفتاح يدور فى قفل باب المنزل ، والمزلاج يهبط ببطء ..

لم يعر أبى الأمر أدنى التفات ، كأنه كان يعرف هوية القادم ..

(أو القادمة !) ..

أو كأنه يرزح تحت أثقال ؛ تجعل من مجرد الالتفات نحو الباب مجهودًا عنيفًا !

ورأيت عمى (ممدوح) يدلف مسرعًا ، غارقًا فى مياه الأمطار والطين ..

يبدو أنه قد فوجئ بمرأى أبى كما لاحظت على وجهه !

ـ (فاروق) .. أأنت هنا ؟!

توقف ومعطفه يقطر بالمياه على أرضية المنزل ، وكنت أقف بجواره لكنه طبعًا لم يكن يملك حاسة سادسة يرانى بها .. وأبى كذلك ..

ـ أين ظننتنى إذن ؟!

قالها أبى بصعوبة كمن تعذبه الكلمـات ، وأسقط فى يد عمى المرتبك وهو يقول متلعثمًا :

ـ إن (سعاد) ...

قاطعه أبى على الفور ، وهو يتنهد فى ألم محرق :

ـ لقد ذهبت (سعاد) !

اقترب عمى (ممدوح) مطرقًا ، وقال فى أسى :

ـ أعلم !

ثم جلس على المقعد المجاور لأبى ، وأمسك بكتفه قائلاً :

ـ لاتعذب نفسك أكثر من هذا يا أخى الحبيب ؛ إنه القضـاء والقدر !

ـ ونعم باللّه (عز وجل) ..

ـ لا ذنب لك أو لها فيما حدث !

ـ حاول أن تقنعها بهذا !

ثم التفت أبى إلـى عمـى سائلاً إياه ، وكأنـه مدفوع للحديث بقوة السلاح :

ـ هل أتيت بالمجلة ؟!

صمت عمى (ممدوح) قليلاً ، ثم قـال فى لهجـة لاتقنع طفلاً صغيرًا :

ـ كل النسخ فى السوق قد ...

هتف أبى يضيق بال مقاطعًا إياه :

ـ هيا يا (ممدوح) ، أعرفك حين تكذب ..

لاذ عمى بالصمت محدقًا فى الفراغ ، وواصل أبى بصدر ما برح يضيق :

ـ .. لا تجعلنى أهبط خصيصًا لشرائها يـا (ممـدوح) .. أرجوك ، أنت تعلم ما بى فلا تعذبنى أكثر من هذا ..

وبنفس الصمت مد عمى (ممـدوح) يده إلى جيب معطفه

الداخلى ، ثم أخرجها قابضة على مجلة مطوية ، تلقفها منه أبى بسرعة افتقدت الحماسة واللهفة ..

وأخذ يقلب صفحاتها بسرعة وقلبه يدق ..

ويقلب ويقلب ..

ـ الصفحة ٣٧ ..

قالها عمى بنفس شروده وشخوصه إلى اللامكان ، مختصرًا على أبى طريق البحث الطويل ، وبالفعل .. وجد أبى ضالته المنشودة على الصفحة ذات الرقم المذكور ..

حاولت أن أستدير لأرى الموضوع المنشور الذى يبحث عنه ، لكنه أغلق المجلة فجأة وألقاها بعيدًا بمنتهى العنف والعصبية ..

(وهى حالة أخرى لم أره عليها مطلقًا فى حياتى من قبل ، إلا هنا ..

للدقة ... هناك !) ..

ومن بين لهاثه ـ كليث جريح بعد معركة محتدمة من أجل البقاء ـ غمغم :

ـ لقد فعلتها (ألفت) إذن !

واستدار إلى أخيه الغائب عن العالم مكملاً :

ـ عندما أخبرونى لم أصدق ، لكنها تتاجر بدم صديقتها على صفحات المجلة يا (ممدوح) ..

حاول (ممدوح) أن يقول شيئًا :

ـ ربما لم ...

غير أنه فى الغالب لم يجد ما يقال !

ـ .. وبدمى أيضًا ، وبسمعتى المهنية !

تابع (فاروق الجبالى) وقد ضاقت عيناه ، ولمعتا ببريق مطفأ ..

وبدأت أنا فى جمع شتات الصورة من خلال ما أرى ..

وأسمع !

* * *

كانت تعانى شيئًا ما إذن ، وماتت فى غرفة العمليات ، فنشرت (ألفت) الخبر على صفحات المجلة ، لتثور ثائرة أبى عندما زارته ـ (ألفت) ـ معتذرة فى عيادته ..

ألهذا تكرهها أمى ؟!

ولهذا بثت الكراهية فى صدرى تجاهها عندما تقمصتنى ؟!

سؤالان فى بحر لجى من الأسئلة ..

ولا جواب ..

إلا عند الظل الماثل فى نهاية الدهليز المظلم ..

الذى لا أعرف حتى الآن ما علاقته بالأمر ؛ من قريب أو من بعيد !

(سؤال جديد) !

* * *

ـ أقرأ كل ما برأسك من أسئلة !

ويشير إلى غرفة جديدة ينفتح بابها أمامى ..

ـ .. لكن صدقينى يا فتاتى ..

وأدخل دون أن أريد ..

ودون أن أقاوم ..

ـ .. أنا لست أعرف ما تجهلين !

هذا مكان غير مألوف ، مكان لم أره فى حياتى من قبل ..

إنه بعيادة طبية أشبه ...

عيادة طبية من نوع خاص لو جاز التعبير ؛ ولو لم نحد عن جادة الصواب الموضوعى ..

هذا الشيزلونج الطويل الذى تتمدد فوقه (سعاد خورشيد) ببطنها المنتفخ ..

وهذا الرجل المتأنق ذو الملامح الهندسية ، واللهجة التى تفوح منها روائح الريف البعيد ، إذ يقول ضاغطًا زر التسجيل من جواره ؛ لتنبعث موسيقى ناعمة حالمة :

ـ لقد قطعنا شوطًا طويلاً جدًا يا سيدتى ..

.. ليس إلا الدكتور (مشهور فراج) !!

شعره مازال أسود ، لم تصبغه الأيام باللون الفضى البراق كما رأيته ظهر أمس ، لكنى لم أنسه بعد ..

(لم أكن أعرف أن للأرواح الهائمة ذاكرة الأفيال إلا الآن ..

الآن فقط عرفت !)

هذه عيادته النفسية لاريب !

قالت (سعاد) / أمى بلهجة هى التعاسة متجسدة فى كلمات :

ـ يبدو أننى قد جئت الدنيا لأعذب من حولى فقط يادكتور !

ابتسم الدكتور (مشهور) وسألها مبتسمًا :

ـ من قال هذا ؟!

قالت وهى تغمض عينيها فى غير راحة :

ـ هو .. أقرؤها فى عينيه كلما تخيلت وجهه أمام ناظرى ..

سألها الدكتور فى تعاطف :

ـ أما زلت تشعرين بالذنب تجاهه ؟!

قالت (سعاد) مزدردة ريقها كأنها تبتلع شظايا معدنية :

ـ أنا المسئولة عن كل شىء يادكتور ..

سألها ملتقطًا دفترًا صغيرًا ليدون على روقة منه بعض الملاحظات :

ـ وما هى مسئوليتك تحديدًا فى أمر كهذا ؟!

صمتت تفكر ، وقالت بعد هنيهة :

ـ لا أدرى .. ربما لو لم أكن مريضة ..

قال مساعدًا إياها على الحديث :

ـ .. تعنين أن ما تعانينه هو سبب ضياعه منك ؟

ـ أجل ..

ـ وهل أنت مسئولة عما تعانين ؟

ـ لا أدرى .. كلما فكرت شعرت بالصداع والارتباك ..

ونظرت إلى الدكتور (مشهور) مباشرة لتسأله :

ـ .. لماذا توقفت عن كتابة المنوم لى يادكتور ؟ لقد أصبح النوم عزيزًا ونادرًا للغاية .. أحيانًا أنام لأقل من الساعة الواحدة فى اليوم الواحد !

قال (مشهور) ملوحًا بالقلم بين أصابعه :

ـ إنه خطر على الحمل يا سيدتى ، لا أخالك تجهلين هذا كصيدلانية معتزلة ..

ـ أجل .. بالتأكيد ..

همست بها وهى تشرد بعينيها قليلاً ، ثم عادت تنظر للكتور (مشهور) قائلة فى توسل :

ـ .. ألا يمكن أن أستريح من عذابى هذا حتى يأتى الوقت ؟!

ـ أى وقت ؟!

ـ أنت تعلم ما أقصده ..

تنهد (مشهور) كأنه يبحث عن جواب مناسب، ثم قال هازًا كتفيه العريضين :

ـ لن يساعدك الطب مالم ترغبى فى مساعدة نفسك أولاً ...

هتفت فى لهفة :

ـ كلى رغبة صادقة، لكن ...

عاد يلوح بقلمه وهو يقول بعد أن صمتت :

ـ الرغبة الصادقة لاتقترن بهذه الكلمة الاستدراكية مطلقًا !

تحسست بطنها المنتفخ بأناملها ؛ وغمغمت وقد امتصها الشرود مجددًا :

ـ لم تواتنى القدرة أبدًا على التخلص من هذا الجنين ..

قال مقرظًا :

ـ وازعك الدينى قوى ..

قالت من عالمها البعيد :

ـ جل ما أخشاه أن ... تتكرر المأساة !

قال بلهجة عميقة :

ـ المؤمن الحق لايقنط من رحمة الله (سبحانه وتعالى).

تنهدت وقالت :

ـ صدقت يا دكتور ..

سألها بعد أن ران الصمت للحظة، مغيرًا دفة الحديث :

ـ هل مازالت الأمور تسير كما تخططين لها ؟!

فهمت (سعاد) مايعنى ـ ولم أفهم أنا فى جلستى الشفافة على مكتبه ـ فأجابته على الفور :

ـ لا أدرى، وإن كنت متشائمة بشدة ..

ابتسم الدكتور وقال بنبرة جهورية واثقة :

ـ لاتقلقى أبدأ على (فاروق)، إنه صديقى منذ أن كنا طلبة فى أروقة (قصر العينى) وأستطيع الزعم بأننى أعرفه جيدًا .. هو رجل ذو مبدأ لايحيد عنه مهما كانت الدوافع والضغوط قوية ..

ابتسمت أمى فى حنان عندما ذكر (مشهور) اسم أبى، وأغلقت عينيها لتغوص من جديد فى عالم تأملاتها الساحرة ..

قالت بعد أن فرغ (مشهور) من حديثه المسترسل :

ـ الحق ما تقول يا سيدى ..

وعلت قسماتها تعبيرات دالة على الألم الدفين الذى يجاهد للطفو على السطح، وهى تردف بنبرة أم تخشى على وحيدها من مكاره الحياة :

ـ .. كل ما أتمناه أن لا يتعذب طويلاً عندما يأتى الوقت !

وران الصمت طويلاً هذه المرة؛ إلا من الموسيقى الناعمة الحالمة المنبعثة من جهاز التسجيل، حتى قال الدكتور (مشهور) فى النهاية مغلقًا دفتره الصغير :

ـ ربما يكون ما سأقوله فظًا وسمجًا ومتنافيًا مع أبسط قواعد الذوق واللياقة ياسيدتى، ولكن اعذرينى إذ لا أستطيع كتمانه فى قلبى أكثر من هذا ..

نظرت إليه أمى فى تساؤل، فقال منتزعًا الحروف من جوفه انتزاعًا :

ـ .. أنتما أكبر تراجيديا مأساوية رأيتها وعشتها فى حياتى ياسيدتى ..

.. وابتسمت أمى فى تفهم عميق !!!

ـ .. أعنى أنتِ و (فاروق) بالطبع !

★ ★ ★

كانت تخشى عليه من شىء إذن، وكانت تعانى مرضًا يعذبها ويعذبه ..

كلامها الغامض لا يفضح الكثير ..

إن الأسئلة فى تزايد مستمر ..

والإجابات ما زالت حلمًا بعيد المنال !

★ ★ ★

الظل ..

والدهليز ..

والصوت المدوى ..

ـ لم يبق إلا القليل، عليك بالصبر والاحتمال ياصغيرتى ..

الغرف ..

والأبواب ..

والولوج عبر باب مفتوح ..

ـ .. من قال إن رحلة البحث عن حقيقة تائهة لا تتطلب بعض العناء ؟!

والتلاشى ..

صالة منزلنا القديمة ، أمى تحمل طفلتها الصغيرة الباكية ـ أنا !!! ـ وتضعها فوق الأريكة ، بينما يأتى عمى (ممدوح) من جهة المطبخ حاملاً قنينة زجاجية تحوى بعض اللبن ..

المرشح الضبابى مازال سيد الموقف ، لكنى تجاهلته وأنا أمعن النظر فى نفسى ..

(.. كائن ضئيل غض وأحمق ، لايدرى من أمر نفسه شيئًا ، ولا يدرك ما تخبئ له الدنيا فى الغد .. لقد جاء ليملأ الدنيا صراخًا وحركة ، هذه رسالته فى الحياة إن كان يدرك وقتها شيئًا كهذا ..) !

أنا فى المهد لأول مرة خارج ألبوم الصور الرمادية ؛ القابعة فى ثنايا الألبوم العتيق ، ذى الغلاف الأخضر الصلب ..

ـ يالها من فاتنة ..

قالها عمى فى حبور ضاحك وهو يناول القنينة لأمى ، وينظر إلىَ ..

مجامل هذا الرجل منذ وقت مبكر للغاية إذن !!

ـ .. مثل أمها تمامًا !

تناولت أمى القنينة ولقَمتنى قمتها فى حنان رهيب ، وقالت ناظرة إلىَ فى سعادة عصية على الوصف :

ـ حقًا ؟!

ـ والاسم الذى اخترتِه لها رائع ..

وقال كأنه يتذوقه لفظيًا :

ـ .. (نسرين فاروق الجبالى) .. اسم ذو رنة موسيقية مميزة !

قالت أمى دون أن تحول بصرها عن وجهى الطفولى :

ـ (ألفت) هى التى اقترحت علىَ هذا الاسم ..

اربدَ وجه عمى (ممدوح) وهو يسألها بمنتهى الضيق والتأفف :

ـ أمازلت صديقة لهذه المرأة الـ ....؟؟

قاطعته أمى محولة بصرها عنى :

ـ مارأيك فى الدادة (رئيفة) ؟!

قال عمى مستجيبًا لرغبتها غير المباشرة فى تغيير مسار الحديث ، وهو يشير بيده :

ـ تلك المرأة النوبية التى تعمل فى المطبخ ؟! تبدو طيبة القلب للغاية ..

قالت أمى :

ـ كانت تعمل فى منزلنا القديم .. وقد طلبتها شخصيًا لترعى (نسرين) فى غيابى فلم تمانع للحظة برغم تقدمها المطّرد فى السن ..

سألها عمى مقطبًا :

ـ وإلى أين ستذهبين ؟!

أجابت ناظرة فى عينيه مباشرة :

ـ أنت تعلم قطعًا ..

فهم على ما يبدو ما ترمى إليه ، فقال مشيحًا بوجهه عنها ومغيرًا الموضوع بدوره :

ـ أما زال (فاروق) فى دوامة العمل كعهده ؟!

سألته بدورها وقد أصاب قوله نقطة موفقة فى حسها الأنثوى :

ـ ومن يمكنه أن ينتزعه منها ؟!

قال وهو يزفر مستعيدًا بسمته :

ـ صدقت .. بعض الناس قد ولدوا ليعملوا فقط !

هل يبدو الحوار مألوفًا نوعًا ما ، أم أن ذاكرة الأفيال قد بدأت تخوننى ؛ كروح تفقد شفافيتها ببطء ؟!

ـ والآن ..

قالت أمى :

ـ .. لنتحدث فى الأمر المهم الذى أخبرتك أننى أريدك بشأنه ..

قال عمى مصفقًا بكفيه :

ـ لهذا حضرت على عجل برغم أنى مسافر بعد أقل من نصف الساعة !

ـ إلى أين ؟!

ـ (الإسماعيلية) !

ـ ولِمَ ؟!

ـ وجدت فرصة عمل جيدة هناك .. تعلمين أن البطالة فى العاصمة تدفعنا للتنقيب عن ثقب إبرة ، والحل الوحيد هو البحث عن عمل فى الأقاليم القريبة !

ـ لن أطيل عليك إذن ..

ـ تحدثى كيفما تشائين ، فما زال أمامى متسع ..

قالت أمى على الفور كأنها أعدت ما تريد قوله سلفًا فى رأسها :

ـ لم يبق الكثير يا (ممدوح) بكل أسف ..

لاح الحزن جليًا فى عينى عمى الضاحكتين أبدًا ، وهو يسألها :

ـ ماذا تعنين بالله عليك يا (سعاد) ؟!

قالت فى ثبات :

ـ لست أظننى فى حاجة للتفسير يا (ممدوح) ..

قال مشجعًا :

ـ لا تتحدثنى بهذه الطريقة يا (سعاد) فرحمة اللّه أوسع بكثير من نطاق تفكيرنا الدنيوى الضيق ..

قالت بنفس الثبات :

ـ ونعم باللّه (عز وجل) ، لكن دعنا لا ننكر الحقائق الثابتة ..

وصمتت هنيهة ثم تابعت :

ـ .. لحكمة جليلة أرادها تعالى سوف أذهب بغير رجعة ، أنا وأنت نعلم هذا جيدًا ..

قال مجادلاً :

ـ لقد مر وقت طويل و ...

قاطعته فى صرامة لينة :

ـ وقد حان الحين أخيرًا .. لا أريد أن أترك ابنتى فى يد امرأة ليست أمًا لها ، لن أتركها تعانى ما التعاسة والمرارة كما عانيتهما فى حياتى .. لا أريد أن يحدث لها هذا أبدًا يا (ممدوح) ..

سألها عمى ماسحًا وجهه بكفيه :

ـ وإذن ؟!

ـ لا أدرى ..

وصمتت ، قبل أن تلقى بقنبلتها فى وجهه :

ـ أنت لا تلاحظ بالتأكيد ذلك التقارب الذى يتم فى الخفاء بين (ألفت) و (فاروق) هذه الأيام !

وامتقع وجه عمى (ممدوح) ذهولاً !!!!

★ ★ ★

المفاجآت ما زالت تترى ..

وأعصابى ـ حتى وأنا روح هائمة ـ بدأت تتحطم ..

فى الأمر خلل ما بالتأكيد ..

أو خطأ ما ..

هو شىء لا أفهمه ، لكنى أحسه ..

يا لعجز العقل الضعيف فى غابة الإنسانية الكثيفة ، حيث شمس الحقيقة لاتخترق أبدًا تشابك الأغصان !

* * *

ـ لقد شارفتِ على بلوغ أسوار النهاية !

الظل ما زال دخانًا ؛ أراه فى آخر الدهليز المظلم شبحًا من رماد ..

ـ .. أو لعلها البداية !

الباب الموصد ينفتح أمامى ، والريح تجذبنى للدخول ..

ـ .. أو لعل البداية والنهاية يمتزجان ، فيخرجان لنا من رحم المجهول كائنًا هلاميًا جديدًا لا اسم له ولا لون ولا رائحة !

وأدخل إلى مكان غارق فى الضباب الأبيض الشفاف ..

غرفة نوم أبى التى أعرفها جيدًا ..

أمى جالسة على طرف الفراش ، وأنا بجسدى الطفل الضئيل فى المنتصف ..

نائمة ولا أصرخ هذه المرة ..

مسحت بيدها على شعرى القصير ؛ المتناسب مع عمرى الذى لم يتجاوز شهورًا قليلة ، وترقرقت فى عينيها دمعة مكبوتة ..

حاولت الاقتراب منها ولمسها ، لكن الفشل كان حليفى ككل مرة ..

الأرواح الهائمة ترى وتسمع وتتألم فقط ، فمن غير المسموح على الإطلاق أن تشعر بدفء اللمسة ، أو بحميميّة الاحتضان ..

ترى ، من أين تنبع موسيقى الكمان الحزين ؟!

(لماذا يتابعنى أينما سرت صوت الكمان ؟)

نهضت أمى ، نظرت إلى ملاكها النائم فى وداعة واطمئنان وانحنت ، قبلته فى خده الناعم كالمخمل ، ثم سارت نحو المرآة ..

لم ترنى فى انعكاس صورتها وأنا أقف خلفها ، أتأمل جمالها الهادئ .. وأمنّى نفسى ـ مازلتُ ـ بأن تحتوينى بين ضلوعها كخفقة قلب ..

غرفة نوم أبى التى أعرفها جيداً ..
أمى جالسة على طرف الفراش وأنا بجسدى الطفل الضئيل فى المنتصف ..

كانت حزينة ، قرأت الحزن سطورًا من أحلام قديمة فى عينيها ، وأحسسته جليًا عبر كل خلجة من خلجاتها ..

ولم أفهم الكثير .. لقد بدأت فى اعتياد هذه الوضعية بعض الشىء !

رأيتها تمد يمناها ، وتلملم خصلات شعرها الطويل المنسدل على كتفيها ، وبيدها الأخرى تلتقط مشبكًا مميزًا بشدة ، وتهم بعقص الشعر خلف رأسها ..

عندما ..

انفتحت نافذة الغرفة بغتة ، وتطايرت الستائر بفعل الريح ؛ مع شحوب الضوء داخل الغرفة إلى حد رهيب ..

والتفتت أمى فى رعب نحو النافذة ، وكذلك أنا !

ورأت ذلك الظل الطويل الذى تراءى خلف الستارة ، وكذلك أنا !!!

شهقت أمى فى فزع ، ولم أشعر أنا إلا بخوف خفى المصدر عليها ..

الظل أعرفه ، بل واعتدت على مرآه فى أحلامى وعبر ممرات القصر الغامض منذ قليل ، ومن دونه فلربما كانت رحلتى إلى هنا أصعب !

لكن .. هل تبعنى إلى حيث أقف ها هنا داخل الغرفة ؟!

أم .. لعله جاء إلى أمى وقت أن كنت طفلة بالفعل .. ليختطفها مثلاً ؟!

خيال مغرق فى العبثية ، أعلم ، لكن ...

هذا ما أراه الآن ..

هناك !!

ـ لقد عدت ثانية !

غمغمت بها أمى وهى تضع راحتها على فيها المفغور ، تحدثت بصعوبة لكنى سمعتها بوضوح ، وتراجعت إلى الخلف حتى كاد ظهرها يلتصق بحافة المرآة !

أما الظل ، فقد تجسد ..

واقترب !

ـ أجل .. عدت !

الصوت الأجش العميق ، الذى يبدو وكأن صاحبه يتعمد تغييره ، والذى ألفته إلى درجة أنه أصبح جزءًا لايتجزأ من حياتى ..

تلك الحياة التى مازلت أجهل منها وعنها الكثير ..

جدًا !!

إنه هو ؛ هو بعينه ، وهو يقترب من أمى التى مابرحت تتراجع وتتراجع دون أن ينتبه هو الآخر لوجودى !

ـ ماذا تريد ؟! أرجوك ارحمنى .. صدقنى أنا لم ...

هتفت بها أمى فى رعب شديد ، والمرآة تكاد تتوحَد مع ظهرها المتراجع ، بينما واصل هو اقترابه منها مادًا لها يده ، وصوته يتصاعد دون فم يتحرك :

ـ صدقينى أنتِ .. أنا الذى لا ...

أعطانى انطباع أمى بأنه يريد أن يؤذيها ويلحق بها الضرر ، فاندفعت بمشاعر الابنة المحبة أقف بينهما علنى أمنعه عن الوصول إليها ..

ـ قف ، لامزيد من الاقتراب !

أردت أن أنطق بها فى صرامة ، لكنى اكتشفت فى النهاية أننى لاأزال تلك الروح الشفافة ، وازداد يقينى بالأمر عندما اخترق الظل وقفتى الواهنة نحو أمى ، مواصلاً وهو يفرد ذراعه اليمنى :

ـ أنا لستُ هو !

واستدرت أتابع ، فرأيت أمى تسقط على الأرض من فرط رعبها ، وتغيب عن الوعى ..

أو ...

عن الحياة !

ـ أماااااااااه ..

هرعت نحوها فى هلع ، ولأول مرة تطاوعنى حبالى الصوتية كروح شفافة على الصراخ ..

اخترقت الظل فتبدد ، وجثوت على ركبتى أمام جسدها الهامد ..

ذرفت دمعة حزن لاحدود له ولا تفاصيل ، ولاحظت برغم فجيعتى العظمى شيئًا غريبًا ..

الجرح القطعى الذى ينزف بالدم على طول إبهامها الأيسر !!

لقد جرحها مشبك الشعر دون شك عندما اخترق الظل المكان ، و ...

يا للدهشة !

ما الذى يحدث بحق السماء ؟!

المشهد يتلاشى أمام ناظرى كضباب ينقشع ، لكن صوت البكاء الطفولى اخترق أذنى قبل أن أذهب ..

وعندما نظرت نحو السرير ، رأيت الظل يحتوى جسدًا غضًا صغيرًا .. يجاهد للتملص ، دون جدوى !

و ...

(أحبك .. صار الكمان .. كعوب بنادق !

وصار يمام الحدائق

قنابل تسقط فى كل آن ..

وغاب الكمان !) ..

★ ★ ★

هنـــا ..

أفقت ..

واجهنى الظلام من كل صوب لكن عينىّ اعتادتاه سريعًا ، وبدأت فى تمييز ما حولى ، وفى إدراك وضعى فى المكان والزمان ..

هذه صالة الشقة !

الظلام يغشى المدى عبر زجاج الشرفة القريب ، لاتبدده سوى البقع الضوئية المنبعثة من قمم أعمدة الإنارة ؛ القائمة أمام شارعنا فى شموخ ..

نحن فى الليل ما زلنا إذن !

كلا ..

هذا ليس حلمًا جديدًا ، وليست رؤية من الرؤى التى كثرت بشدة من الأمس إلى اليوم ..

جسدى أشعر به ، يهتز فوق المقعد الهزاز ..

أستطيع أن أتحسس بيدى وجهى وشعرى وقدمى ..

هذا أنا ـ لست روحًا هائمة شفافة كما اعتدت أن أكون ـ وقد عدت أخيرًا إلى هنا ؛ بعد رحلتى الطويلة مع المجهول .. وإلى المجهول !

لكن ..

كيف عدت ؟!

آخر ما أذكره أننى كنت فى (قصر البارون) بصحبة الإخوة عندما ..

هل عادوا بى وأدخلونى إلى هنا ثم مضوا إلى حال سبيلهم ؟!

احتمال وارد على ما تحمله طياته من لا معقولية ..

وما المعقول فيما يحدث لى من الأمس إلى اليوم ؟!

نهضت من فوق المقعد بصعوبة ، مفاصلى متخشبة ، عضلاتى متصلبة ، عيناى متورمتان كما أحسهما ، ربما من فرط ما انغلقنا ..

ترى ، كم الساعة الآن ؟!

دنوت من زر الإنارة ، ضغطته فانغلقت عيناى برد فعل

عكسى ، ثم فتحتهما ببطء لتتشربا الضوء قليلاً قليلاً ، ورأيت ساعة الحائط المعلقة فى صدر الصالة ..

إنها الرابعة والربع .. فجرًا بالتأكيد !

كيف مر كل هذا الوقت دون أن أشعر ؟!

كيف تسربت الساعات والدقائق والثوانى هكذا دون أن أشعر ؟!

كيف ضاع اليوم ؟!

لا أعرف ، ولا أطمح فى إجابة !

الصالة هادئة تمامًا ..

التلفاز مغلق ، المسجل مفتوح لكن بكرة الشريط القابع داخله قد كفت عن الدوران ، وأسفل المقعد الذى ما زال يتأرجح ببطء كتاب سقط مفتوحًا ، عنوانه : (كيف تعتنين بطفلك فى عامه الأول ؟) ..

كل شىء هادئ ، حتى داخل غرفة نومى التى دلفت إليها سريعًا ..

السرير مرتب كما تركته صباح الأمس ، الصندوقان اللذان

يحتويان حاجيات أمى مستكينان فى الركن ، المرآة نظيفة براقة ، وصورة أمى مازالت معلقة فى زاويتها العليا ، تنظر نحوى كأنها تنادينى للاقتراب ..

سقطت بجسدى على السرير ، مرهقة كأنى كنت أعدو فى (ماراثون) ، ولم أنم لساعات طويلة غبت فيها عن الوجود كلية ..

ثم بدأت الأسئلة تترى دون أن أستطيع مقاومتها ..

ما هذا الذى يحدث لى ؟!

أى جنون يفرض نفسه على جهازى العصبى ؟!

هل حدث كل ما حدث بالفعل ؟!

هل رأيت كل ما رأيت وسمعت كل ما سمعت ؟!

إننى مازلت أتذكر كل شىء بأدق التفاصيل ، مرعبها وغامضها ومفهومها ..

لقد أتت (نهى) إلى هنا ثم صحبتنى فى سيارة (صلاح) إلى القصر ، وهناك رأيت (جميلة) و (سامى) والإخوة و ... والسيد (س) !!!

وهناك .. انتقلت بطريقة ما إلى مجرى الذكريات الزمنية التى لم أعشها ، فانفتحت أمامى بوابات الماضى الصدئة ، ورأيت مافهمت منه الكثير ؛ مما حجبه الكبار عنى بعقولهم الراجحة حتى هذه اللحظة ..

نظرت إلى إبهامى الأيسر ، قربته من عينى لأراه بوضوح ..

الجرح مازال مضمدًا ..

ومازال ينزف كما يشى احمرار الضمادة ..

الآن أعود إلى نقطة البداية محملة برغبة أمى قبل أن تذهب فى كشف المستور ..

القصة باختصار وترتيب بعد أن رأيتها دونما ترتيب : زواج أمى وأبى فى قصر عائلتها المنيف ، ثم مرض أمى الذى تزامن مع حملها فى شخصى المتواضع ، والذى كان يعالجها الطبيب النفسى من تبعاته النفسية الأليمة .. ولدتنى أمى واشتد بها المرض فقرر أبى أن يجرى جراحة لها ، ولما فشلت العملية وماتت أمى ، نشرت صديقتها الوحيدة (ألفت) الخبر فى المجلة التى تعمل بها مما أثار حنق أبى حتى الاشتعال ..

ملاحظة مهمة : أمى والسيدة (ألفت همام) من (إخوة الدم) !!!

الأسئلة (بعضها فقط!) : لماذا كانت تصرخ وتتهم أبى بقتلها فى أثناء الولادة ؟!

عمن كانت تتحدث معه وهما يشاهدان (أم كلثوم) فى التلفاز ؟!

ماذا أصابها ، ومم كانت تخشى على جنينها / أنا ؟!

هل كانت تخشى من وجود علاقة متنامية فى الخفاء بين أبى و (ألفت) ؟!

ماذا كان يعنى الدكتور (مشهور) عندما قال لها : (أنتما أكبر تراجيديا مأساوية رأيتها وعشتها فى حياتى ياسيدتى..) ؟!!

هل كانت أمى ترى السيد (س) هى الأخرى ؟!

هل كانت تعرفه ؟!

هل الاتصال بهذا الكيان الهلامى الذى لا وجود له من الأمراض المتوارثة فى عائلتى ؟!

لست أدرى !

الحقيقة مازالت بعيدة ، وأنا من هواة البحث والتنقيب عنها مهما كانت الصعاب ..

ومهما كان الثمن باهظًا ..

ربما كان (أوديب) مغفلاً وأحمق عندما أصر على أن يعرف ، وربما كلفته المعرفة راحته ودعته وحياته الآمنة التى كان يحياها ، بل وعينيه اللتين فقأهما معاقبًا نفسه على إثمه الرهيب ، لكن هذا كان أهون كثيرًا من أن يقضى حياته الباقية آثمًا فى بحور الجهل السوداء ، سعيدًا بقتله (لايوس) أبيه ، وبزواجه المحرم من أمه (جوكاستا) !

المواجهة كانت فى رأيى ومازالت وستظل الحل الأمثل لاختراق الحواجز ؛ مهما كانت عالية أو صلبة ..

بمنتهى السرعة بدلت ملابسى ، وهرعت نحو الصندوقين .. قلبت فيهما بسرعة ولملمت أوراق التحاليل والتقارير الطبية المتناثرة ذات الطلاسم اللاتينية ، خبأتها فى جيوب سترتى ثم توجهت نحو باب المنزل !

نعم ، سأهبط الآن فجرًا وأستقل تاكسيًا ؛ وليكن بعدها مايكون ..

إلى أين ؟!

سؤال عجيب ..

إلى المطار بالطبع وبمنتهى السرعة ..

لماذا ؟!

سؤال أعجب ..

قبل أن تقلع طائرة أبى المتجهة إلى (مونتريال) فى تمام الخامسة صباحًا، أى بعد أقل من النصف ساعة كما أخبرتنى ساعة الحائط فى صدر الصالة؛ وهى تخرج لى لسانها!

لابد أن أراه الآن حتى أعرف ماخبأه عنى لأكثر من عشرين عامًا..

كلا، لن أنتظره أسبوعًا حتى يعود..

فلست أتمتع بهذا الصبر أبدًا!

★ ★ ★

كنت محظوظة لدرجة أننى وجدت تاكسيًا بعد عشر دقائق فقط..

ولأننى لم أقابل ذئبًا ضالاً أو قاطع طريق مسلح فى الشوارع الليلية الخالية من البشر..

ركبت على الفور..

ـ المطار من فضلك!

قلتها وأنا أجلس لاهثة فى المقعد الخلفى، فنظر السائق العجوز طيب القلب إلىّ فى مرآة السيارة، وقال:

ـ الطريق طويل يا آنسة..

ليس طيب القلب إلى هذا الحد الذى يوحى به مظهره!

ـ سأعطيك ماتشاء، ولكن أسرع..

قال وهو يمص شفتيه:

ـ عشرون جنيهًا..

ـ هو كذلك!

وانطلق بى كالصاروخ!

★ ★ ★

فى الطريق رأيت (قصر البارون)..

شامخ لايزال فى موقعه المميز على الطريق..

غارق فى الظلمة والظلام..

قد يوحى مظهره بالرعب والغموض..

لكن..

ليس من سمع كمن رأى..

على الإطلاق!

★ ★ ★

هرولت نحو صالة المغادرين بكل ما تبقى فى جسدى المنهك من قوة وعزم ..

نظرت فى ساعة يدى : لقد تجاوزت الخامسة بدقيقتين على الأكثر ..

كدت أخترق البوابة لكن ضابط الأمن أوقفنى فى صرامة ، وفى صرامة قال :

ـ جواز السفر ، والتذكرة من فضلك !

لم أتوقع هذا ، برغم أنه كان من البديهى أن أتوقعه ..

قلت فى ارتباك :

ـ إن والدى مسافر وقد ..

وسارعت بتأليف قصة خائبة ..

ـ .. وقد نسى نقوده فى المنزل ، أنا هنا لأحضرها له !

لم يقتنع بالطبع ـ فهم لا ينتقون السذج لمثل هذه الوظائف الحيوية ـ وقال :

ـ آسف ، ممنوع !

قلت وقد اصطبغت لهجتى بالرجاء :

ـ أرجوك ، إننى ...

قال فى حسم وهو يفرد راحته فى وجهى :

ـ الدخول من هنا للمسافرين فقط ..

ثم إنه أشار لبوابة أخرى :

ـ .. المودعون يدخلون من هناك !

صحت فى غضب وعناد ؛ فلم أكن على استعداد للعودة بخفى حنين :

ـ إننى صحفية ومن حقى أن ...

قاطعنى دون أن تلين لهجته :

ـ الصحفيون يدخلون بتصريح خاص من مكتب الأمن !

كل شىء منظم على ما يبدو ، وأنا من أحب الهيئات المنظمة لكن هذا ليس وقت الحديث حول (اليوتوبيا) !

الوقت يمر ولن يتجمد أبدًا لمجرد أننى أريد ذلك ..

سألت الضابط وقد كففت عن اللجوء إلى الحيل :

ـ إذن أخبرنى من فضلك ، هل أقلعت طائرة (مونتريال) ؟!

هز كتفيه وقال مشيرًا إلى نافذة قريبة :

ـــ لست أدرى فى الواقع .. يمكنك التأكد من (الاستعلامات) هناك ..

شكرته بإيماءة من رأسى .. وفكرت فى إخباره بأن خطيبى ضابط مثله عله يسمح لى بالدخول ، لكنى آثرت ألا أحرج نفسى معه أكثر من هذا ..

وألا أزج باسم (هشام) فى كل صغيرة وكبيرة ؛ برغم اضطرارى لأن أفعل !

عبر النافذة رأيت موظفًا نحيلاً يجاهد للبقاء مستيقظًا ..

ـ من فضلك ..

نظر إلىّ بعينين محمرتين ، وأشعل سيجارة ..

ـ .. هل أقلعت طائرة (مونتريال) أم ؟!

سألنى وهو ينفث الدخان :

ـ طائرة ماذا ؟!

ـ (كندا) .. أعنى (كندا) !!

ـ لحظة ..

قالها ونظر إلى شاشة حاسب آلى عتيق أمامه ، ثم التفت نحوى وقال :

ـ .. أجل .. أقلعت منذ دقائق معدودة !

اعترتنى خيبة أمل لم أشعر بمثلها فى حياتى من قبل ، خاصة وهو يشير إلى نقطة عالية خلف كتفىّ ويتابع :

ـ .. فى الغالب .. ها هى ذى ..

واستدرت إلى حيث أشار ، لأرى نقطة مضيئة فى السماء التى بدأ الضوء البنفسجى الشاحب ينتشر على صفحتها الصافية ..

نعم ، فى الغالب هى يا سيدتى ..

الطائرة التى تحمل أبى الحبيب ـ ما زال حبيبًا برغم كل شىء ـ إلى أقصى شمال الكرة الأرضية الغربى ، حيث الجليد والعواصف الرعدية ونهاية العالم !

سأنتظر أسبوعًا إذن فى أتون الحيرة اللاهبة ..

ما لم أفعل شيئًا ..

لكن السؤال الذى طنّ كألف نحلة مزعجة فى عقلى ، وأنا أسير الهوينى فى ساحة انتظار السيارات الواسعة أمام المطار ،

باحثة عن سيارة أجرة تعود بى من حيث أتيت ، كان :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل ؟!

ماذا يا (نسرين) ؟!

* * *

كاد الجرس يحترق من كثرة ماضغطت الزر ، وكاد الباب الخشبى يتداعى من فرط ما دققت فوقه بيد محمرة ..

لكن (نهى) لم تفتح الباب أبدًا ..

السابعة صباحًا وقت مزعج لطرق الأبواب ، خاصة بهذه الطريقة الفجة الخالية من اللياقة كخلو قلبى من الطمأنينة ، لكنى سأجن لو لم أر أحدًا الآن ..

أحتاج لمن يفهمنى ماحدث ، ومن ينتشلنى من الغرق فى بحر الأفكار والخواطر ..

واصلت دون كلل ، لكن الباب ظل صامتًا ، وظل الثور المعدنى المثبت أعلاه يرمقنى بعيون غاضبة ..

إما أنها غير متواجدة بالداخل ، وإما أن ذبابة (تسى تسى) قد نقلت إليها داء النوم أو الموت الزؤام ، وإما أنها تتجاهلنى ..

الاحتمال الأخير كان واردًا قبل زيارتها لى البارحة ، لكن اليوم نحن شقيقتان جمع بيننا الدم بطريقة عبثية مازلت غير قادرة على فهمها أو هضمها ..

فى الغالب هى غير موجودة ، وها هو ذا الجنون يدفعنى لصعود السلم إلى أعلى .. مخاطرة غير محسوبة بالمرة أن أصعد لأطرق باب (صلاح) الذى يعيش وحيدًا ، لكنى سأجن لو لم أر أحدًا الآن ، أى أحد له علاقة بما يحدث ..

و (صلاح) واحد منا ..

واحد من إخوة الدم !!

سيارته الـ (١٣٢) الفضية كانت تربض بالأسفل ، رأيتها وميزت رقمها بوضوح عندما عدت من المطار ..

توقفت أمام الباب ، فكرت قليلاً ثم اندفعت وضغطت زر الجرس ..

لكنه لم يعمل ، معطل هو الغالب فلا مفر من الطرق بيدى التى احمرت من الطرق على باب (نهى) ..

لم يدم الطرق طويلاً هذه المرة ، فقد فتح لى (صلاح) الباب ، وعيناه المحمرتان تشيان بنعاس شديد ، وبغضب أشد ..

ـ صباح الخير يا (صلاح) ..

لهث الفتى فيما يشبه الخوار ، ثم سألنى دونما ترحيب :

ـ ماذا تريدين ؟!

لحمر وجهى من فرط الحرج ، وتبخر الكلام من على لسانى ..

ـ أ .. أ ..

ولما دامت تعتعتى طويلاً ، جاء رده علىّ عمليًا جدًا ..

لقد صفق الباب بعنف فى وجهى ، وسمعته من خلف الباب يطلق سبة ما ، ثم ...

* * *

ـ تفضل يا أسطى ..

وانطلقت سيارة الأجرة بعيدًا ، بينما وقفت أنا أرمق المبنى الهائل الممتد إلى السحاب ، وبالتحديد إلى تلك اللافتة المعلقة على شرفة من شرفاته الكثيرة ..

(جريدة الأربعاء) ..

فى هذا المبنى يقع مقر الجريدة ، وقد قررت أن أواجه السيدة (ألفت) بكل ما عرفت عوضًا عن أبى المسافر ، على ما فى ذلك من صعوبة بالغة ..

كنت مستعدة للسير على أى طريق يقودنى نحو الحقيقة الغائبة ..

أى طريق مهما كانت وعورته ..

وقفت أمام مدير مكتبها المتأنق فى إفراط وقلت :

ـ صباح الخير ..

قال بسماجة متظاهرًا بالتقليب فى أوراق يحويها ملف بين يديه :

ـ أهلاً !

معروفة أنا ها هنا بحكم قدومى المتكرر حاملة التحقيقات والمحاولات الصحفية المتنوعة ، لذا فالكثيرون يحيوننى ويتمنون لى فى أعماقهم مستقبلاً مشرقًا مزدهرًا ، أما هذا الكائن الرخو المسمى بمدير مكتبها فيكن فى أعماقه كراهية غير مبررة تجاهى ؛ منذ لقائنا الأول ـ لو تذكرون !

تجاهلت لهجته كما أفعل دومًا ، وقلت رامقة باب مكتبها بنظرات حادة :

ـ أريد أن أرى السيدة (ألفت) من فضلك ..

قال بنفس السماجة وهو يواصل تقليبه فى أوراقه دون حتى أن ينظر نحوى :

ـ هذا غير ممكن للأسف !

انفجرت فيه، وكنت أعرف أن هذه الخطوة قادمة لامحالة:

ـ لقد طلبت منى الحضور بنفسها ..

لم أكن أكذب ، فقد فعلت ذلك بالأمس وأغلقت السماعة فى وجهها بمنتهى الصفاقة !

نظر نحوى هذه المرة سائلاً :

ـ متى كان ذلك ؟!

كذبت هذه المرة وأنا أجيبه :

ـ منذ ساعة تقريبًا !

عاد ينظر فى أوراقه قائلاً :

ـ هذا أيضًا غير ممكن بكل أسف !

قطبت وأنا أسأله باتزعاج مستنكر :

ـ ماذا تعنى ؟!

قال :

ـ السيدة (ألفت) قد طارت إلى (عمان) فجر اليوم لحضور الملتقى النسائى الدولى الثالث المنعقد هناك !

مفاجأة لم تكن فى حسبانى ، لقد فقدت فرصة المواجهة الثانية أيضًا ..

سألته :

ـ ومتى ستعود ؟!

أجاب وهو يرد على هاتف رن فجأة :

ـ لا أدرى بالتحديد .. ليس قبل أربعة أيام .. ربما خمسة .. آلو !

ولمحت فى عينيه اللتين رفعهما نحوى قبل أن أغادر نظرة شماتة ، واستدرت بالفعل عندما سمعته ينادينى :

ـ يا آنسة ..

التفتُ إليه متعجبة ..

ـ .. يمكنك أن تتركى لها ما تشائين ، وسأعرضه عليها بنفسى عندما تعود !

قالها وقد رفع السماعة التى يتكلم فيها وأبعدها عن أذنه وفمه ، أما بسمته فلم يأل جهدًا فى جعلها نموذجًا تجريديًّا للاستفزاز فى أنقى صوره ..

ـ كلا ، أشكرك ..

واستدرت مسرعة بالمغادرة قبل أن ينادينى ثانية ، شاعرة بأن الدنيا قد أغلقت جميع أبوابها فى وجهى ..

أما هو فقد عاد يتحدث على الهاتف باستمتاع ..

رباه ..

لتحبنى بقدر ما أكره أفراد السكرتارية ومديرى المكاتب فى أى مكان !

* * *

عندما انتهت المحاضرة ، اتجهت قافلة مكونة من (رحاب) و (مروة) و (شيماء رويتر) و (تامر فوزى) ـ هل تذكرونه ؟! ـ إلى الكافيتيريا ..

وهناك ، رأونى جالسة فى الركن وحدى ، شاردة تمامًا ..

فى الحق كنت أزن فكرة مجنونة ما فى رأسى ، عندما اخترقوا علىَّ جلستى الانفرادية ..

ـ (نسرين) .. أأنتِ هنا ؟!

قالتها (رحاب) فى دهشة ، فى حين سألتنى (مروة) :

ـ مابك ؟! لم تجلسين وحدك هكذا ؟!

قلت فى ضيق لم أفلح فى إخفائه :

ـ لاشىء !

جلسوا حولى دون دعوة ، فى الحق لم يكونوا فى حاجة إلى واحدة ، أنا التى كنت فى حاجة للتفكير الهادئ بعيدًا عن أى بشر ..

إن طاقتى الاجتماعية كانت فى أدنى معدلاتها وقتها ..

ـ فاتتك محاضرة (رءوف كساب) !

قالتها (شيماء) وهى تنظر نحو (تامر) الذى هتف محنقًا :

ـ ذلك الوغد !

قلت وأنا أضغط براحتى على مقدمة رأسى :

ـ مزاجى متعكر قليلاً ..

سألتنى (مروة) فى اهتمام يليق بروحها العطوف :

ـ لم أتيتِ اليوم إذن ؟! كان الأجدر أن تستريحى ..

قلت متنهدة :

ـ لم أطق الجلوس وحيدة فى المنزل ..

قالت (رحاب) وكان لديها كل الحق فيما تقول :

ـ منذ البارحة وأنت لست على ما يرام .. حالك لا يسر !

لم أستطع النطق بشيء ، وانتهز (تامر) الفرصة ليغوص في المقعد ويلقى على أسماعنا بمحاضرة فلسفية :

ـ كلنا يأتى علينا الوقت الذى نشعر فيه بشيء كهذا .. بحالة رتيبة من التكرار والروتين والتشرنق .. إنه الملل .. ذلك الكائن المقيت الذى يحيل حياتنا جحيمًا رمادى اللون والطعم والرائحة ببطء .. حتى إنه يدفع البعض أحيانًا إلى الانتحار ..

واستخدم يديه مواصلاً :

ـ .. إن (أنيس منصور) يقول فى هذا الشأن : (الذى يشعر بالملل ليس هو الذى لا يرغب فى الحياة ، وليس هو الذى لا يرغب فى الموت .. لأن الذى لا يرغب فى الحياة يرغب فى الموت ، والذى لا يرغب فى الموت يرغب فى الحياة .. فكلاهما يرغب فى شيء .. ولكن الذى يمل أو الذى يتململ هو إنسان لا يرغب حتى فى الرغبة ..) !

رائع يا (تامر) .. لكنى لست فى حالة تسمح لى بالاستماع أو الاستمتاع بثقافتك الواسعة وأدائك المسرحى المتقن ..

اعذرنى إذن !

ـ ليس مللاً ولكن ..

قلتها متحاملة على نفسى ، لكنه صاح فى حماسة ملوحًا بيديه :

ـ لا يوجد (ولكن) .. هيا ، دعونى أدعوكن للذهاب إلى ندوة من طراز خاص تقام فى ...

قاطعته وأنا أنهض :

ـ كلا .. لنؤجل هذا الأمر إلى وقت آخر ..

سألتنى (شيماء) :

ـ هل ستعودين للمنزل ؟!

ـ كلا ..

قال (تامر) فى إغراء :

ـ إنها ندوة فريدة من نوعها ، صدقينى .. ربما وجدت فيها مادة خصبة تنقلينها للقراء عبر جريدتك ..

زفرت قائلة :

ـ فيما بعد ..

سألتنى (رحاب) :

ـ إلى أين ستذهبين إذن ؟!

أجبتها :

ـ سأسافر !

قطبت (مروة) وسألتنى باستغراب :

ـ تسافرين ؟! إلى أين ؟!

قلت فى صلابة :

ـ إلى (الإسماعيلية) !

سألنى (تامر) هذه المرة :

ـ ولماذا ؟!

قلت فى نفاد صبر وأنا أنظر إلى ساعة معصمى :

ـ لزيارة عمى المقيم هناك .. التفاصيل أخبركم بها لاحقًا .. إلى اللقاء ..

وابتعدت دون كلمة زائدة ..

بعد أن غبت عن أنظارهم التفت إليهن (تامر) وقال ماطًا شفتيه :

ـ خسارة ، ستفوتها ندوة رائعة ..

ونظر إليهن ليتابع فى إقناع :

ـ هل تعلمن من سيكون نجمها ؟! إنه (سامى تيمور) خبير الروحانيات الشهير ..

علقت (شيماء) هاتفة فى حماسة :

ـ يا للروعة ..

وقالت (رحاب) مفكرة :

ـ ليس الاسم بغريب عنى !

بينما قالت (مروة) فى تعقل :

ـ لقد رأيته بالأمس فى التلفزيون مع الدكتور (مشهور) !

ابتسم (تامر) قائلاً :

ـ ستأتين معى ثلاثتكن إذن !

فرقعت (شيماء) بإصبعها قائلة :

ـ بالتأكيد ..

وقالت (رحاب) مازحة :

ـ دعنى أفكر قليلاً !

وحسمت (مروة) الأمر بقولها :

ـ ربما بعد أن تنتهى المحاضرة القادمة !

★ ★ ★

الذهاب إلى هناك ..

ليس سوى عمى (ممدوح) ..

إنه الوحيد الذى يمكن أن أستعين به الآن ، إذ يعرف الكثير دون شك ..

لقد كان هناك ..

شاهدته أكثر من مرة فى الرؤى الماضية التى تجلت لى ..

رأيته فى حفل الزفاف ، ورأيته يحضر المجلة لأبى ، ورأيته يتحدث مع أمى عن سر لايعرفه سواه ..

حمدًا لله أن الطريق إلى (الإسماعيلية) ليس بعيدًا ، المسافة يقطعها الباص المكيف فى أقل من الساعة ونصف الساعة ..

من (الترجمان) ركبت باص الساعة الثانية ظهرًا ..

وانطلقت فى محاولة أخيرة لهتك الأستار ..

وسبر الأغوار ..

وكشف كل الأسرار ..

* * *

أخذت ـ كما أفعل دومًا فى طرق السفر البرية ـ أتلهى بعد الأشجار القائمة فى منتصف الطريق تارة ، وبمتابعة اللافتات الإعلانية الضخمة على الجانبين تارة ، وتارة ثالثة بانتظار لافتات المسافة الصغيرة ـ التى تتناقص فوقها الأعداد كلما اقتربت ـ فى ترقب ..

فى الباص جلست على مقعدين بمفردى حتى لايضايقنى أحد ، وحتى لايثرثر معى أحد ..

لقد بلغت طاقتى الاجتماعية الحضيض ..

وبلغت حالتى المزاجية أسوأ حالاتها ..

مع آذان العصر هبطت فى المحطة ، لتقابلنى (الإسماعيلية) بنسماتها الرطبية كأنها تحيينى على طريقتها الخاصة ..

جميلة هذه المدينة وهادئة ونظيفة منذ ولدت على ضفاف (قناة السويس) ..

لا آتى إلى هنا كثيرًا بحكم الوقت الذى تلتهمه حياة العاصمة فى نهم ؛ كوحش لايشبع ، برغم أنى أعشق الهدوء والخضرة والجمال الخاص الذى أصادفه كلما جئت ..

كنت أتمنى لو أتيت فى ظروف أفضل من هذه ، لكن ..

ما باليد حيلة ..

أشرت لسيارة أجرة فتوقفت على الفور ..

ـ حى (الشيخ زايد) من فضلك ..

وانطلقت بى السيارة البرتقالية نحو العنوان الذى أمليته مفصلاً ..

حاولت الاتصال برقم عمى عبر هاتفى المحمول لأخبره بأنى قادمة لكن أحدًا لم يرد ، ربما هو فى نوم القيلولة أو ربما يكون فى مشوار ما ..

أيًا كان الأمر فسأقابله ، أنا لم أقطع أكثر من المئة كيلومتر حتى أعود دون إجابات ..

هبطت أمام بناية صفراء يبرز من جوانبها الطوب الذى بنيت به ، ونقدت السائق أجرًا خياليًا كنت سأدفع أضعافه فى سبيل مسافة كهذه فى (القاهرة) ..

إننى أغبط سكان الأقاليم حقًا على حياتهم السهلة !

هأنذا أصعد فى الدرجات نحو الشقة فى الدور الثالث ، وقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من كشف المستور ..

وها هو ذا باب الشقة ..

ممدوح الجبالى

محاسب

اسم عمى مكتوب بخط النسخ الجميل ، على لافتة صغيرة تتوسط نصف الباب العلوى ..

لم أخطئ العنوان ؛ لحسن الحظ الذى لايحالفنى كثيرًا ..

وضغطت الجرس ثم طرقت الباب ..

وبدأت رحلة طويلة من عذاب الانتظار والطرق دون جدوى ..

وبالإضافة للجرس المتواصل والطرق المزعج ، أخرجت هاتفى المحمول وبدأت فى الاتصال برقم عمى .. سمعت صوت الهاتف يرن فى الداخل لكن أحدًا لم يفتح ..

كلا ، ليس هنا أيضًا !!

أرجوك اظهر يا عماه ..

انهض من نومك إن كنت نائمًا ، وافتح لى إن كنت تتجاهل ضيفًا ملحاحًا وثقيلاً مثلى ، وعد من الخارج إن كنت فى مكان ما ..

ليس فى الداخل كما يسهل الاستنتاج ..

هل سافر لمكان ما هو الآخر ؟!

هل تآمرت كل الظروف ضدى ؛ لأفقد كل من بيده أن يدلنى على شىء فى يوم واحد ؟!

وفى اليوم الذى أحتاج إلى أى منهم فيه بالذات ؟!

كلا .. هذا كثير ..

كثير جدًا ..

أكثر من طاقتى المحدودة جدًا على الاحتمال ..

شعرت بأن قدمىّ ترتخيان ، فجلست على السلم وأنا أغالب رغبتى فى البكاء قهرًا وكمدًا وضيقًا عارمًا ، لكن شعاعًا أخيرًا من النور بدد الظلام الذى تراءى شبحًا أمام عينى ..

شعاعًا برز من خلف باب آخر ، مجاور لباب شقة عمى ..

ـ يا آنسة ..

رفعت ناظرى نحو الصوت الأنثوى الغليظ الهاتف .. وأجبت النداء لا إراديًا :

ـ أجل ..

ـ من أنتِ ؟!

امرأة لحيمة بدينة ترتدى ثيابًا منزلية مبتلة ، وتربط منديلاً ملونًا حول شعر رأسها الخشن ..

ملامحها غير جميلة لكنها تشى بأمومة وطيبة بلا حدود ، وقد أردفت بعد أن سألتنى لترينى كم هى ذكية ولماحة :

ـ .. هل تريدين الأستاذ (ممدوح) ؟!

نهضت هاتفة فى لهفة عارمة ، وكدت أن أتشبث بها كطوق نجاة وجدته فى بحر عاصف :

ـ أجل .. إنه عمى .. شقيق والدى رأسًا !

تمعنت فى وجهى للحظة ثم قالت مبتسمة فى عفوية :

ـ تشبهينه إلى حد ما ..

ثم أفسحت لى طريقًا للدخول مردفة بمنتهى الأريحية :

ـ .. تفضلى عندنا قليلاً يا حبيبتى !

ـ أشكرك بشدة ولكن ...

مازلت طفلة تتهيب الغرباء مهما بدوا منبسطين ..

ـ .. ألا تستطيعين أن تدلينى على مكان تواجده الآن ؟!

قالت المرأة :

ـ فى العمل ..

من أنت ؟!

امرأة لحيمة بدينة ترتدى ثيابًا منزلية مبتلة ، وتربط منديلاً ملونًا حول شعر رأسها الخشن ..

آخ .. أنا لا أعرف أين يعمل عمى أصلاً ، ولا متى سيعود ..

ـ .. سيعود متأخرًا ، ليس قبل السابعة مساءً كما يعود كل يوم !

لقد أوصدت آخر الأبواب فى وجهى أيتها المرأة ذات الملامح الطيبة .. فشكرًا لك !

غمغمتُ فى قنوط وأنا أنظر إلى الأرض :

ـ حقًا ؟! ولكن .. يجب أن أعود قبل أن يهبط الظلام ؟!

سألتنى المرأة :

ـ أنتِ من (مصر) .. أليس كذلك ؟!

ما زال سكان الأقاليم يطلقون على العاصمة اسم (مصر) إذن ، لم يتغير هذا التقليد كثيرًا منذ جئت آخر مرة !

أجبتها وأنا أحاول الابتسام دون جدوى تذكر :

ـ أجل .. أنا من (القاهرة) !

قالت المرأة فى صدق :

ـ تفضلى إذن وانتظريه لدينا حتى يعود ..

برغم رغبتى الصادقة فى أن أفعل ؛ رفضت تأدبًا لاتهيبًا :

ـ أشكرك بشدة ..

مظهر المرأة لايوحى بالشر أبدًا ، ثم إنها جارة عمى ، وهذا أدعى للطمأنينة ..

ـ لاتخجلى منى يافتاة ، ألم يخبرك عمك من قبل عن (أم حسن) ؟!

ابتسمت وأنا أبحث فى ثنايا عقلى المكدود عن رد مناسب ، لكنها سبقتنى بالقول :

ـ إنه يترك صغيره (حمادة) ...

وفجأة ، انطلقت فى وجهى رصاصة على شكل طفل مشاغب ؛ اندفع من الداخل هاتفًا :

ـ تاتت (نسرين) !

وتعلق بى (حمادة) فى عنف حتى كدت أسقط على ظهرى ، بينما تابعت (أم حسن) قولها الذى تم تفسيره عمليًا :

ـ .. لدى دائمًا حتى يعود !

وعندما نظرت إلى وجه (حمادة) الأسمر وشعره الأكرت وابتسامته العريضة البلهاء ، أيقنت أننى منتظرة فى شقة (أم حسن) لامحالة ..

وابتسم شىء ما فى أعماقى ، نصف ابتسامة بصعوبة !

★ ★ ★

روت لى (أم حسن) الكثير والكثير من الحكايات التى لاتنتهى ، وكأنها تعرفنى منذ ولدت ، أو كأننى صديقتها الوحيدة المقربة منذ آلاف السنين !

ولم يكن بيدى إلا الاستماع والتفاعل بالهمهمة والإيماء ، عرفانًا بجميلها فى إيوائى وإرجاءً للوقت الذى لايمر أبدًا ..

فى الحقيقة لم أكن مهتمة بسماع قصة حياتها منذ ولدت ، أو قصة زوجها الذى يعمل نجارًا فى (جدة) ولا يهبط فى إجازة إلا لماما ، أو قصة ابنها الوحيد (حسن) ومعاناتها المريرة فى انجابه بعد سبع سنوات من الزواج دون أطفال ، أو قصة جارتها التى سقطت فى أثناء صعودها فى السلم ورقدت فى الجبس لما يزيد على الشهر ، أو قصة (الطعمية) المسممة التى يبيعها رجل عجوز عند أول الشارع دون أن تقبض عليه الصحة ، أو ... أو ...

لكنى استمعت قدر جهدى القليل ، إذ أنا مجبرة لا بطلة !

تناولت غدائى معها بعد أن أقسمت بأغلظ الإيمان إننى لو لم أفعل فستلقى بنفسها من الشرفة ، لم آكل كثيرًا برغم أنها طباخة ماهرة كما يشير الطعام ، معدتى متحجرة وبالى مشغول ، لكنى لا أود أن ينتهى اليوم بانتحار المرأة التى أجلس فى منزلها ..

الأمر أبسط من هذا بكثير ..

تبًا لعقارب الساعة التى تخرج لى لسانها وتضرب عن الدوران ..

أما عن (حمادة) فحدث ولا حرج ، خاصة عندما يلتقى بطفل آخر لايقل عنه شقاوة وشيطنة ، هو (حسن) ابن (أم حسن) !

كانا يتقافزان مثل (اليويو) ، ويتشاجران حتى البكاء ، ثم يلعبان (الاستغماية) فيختبئ أحدهما فى الغسالة ويبحث عنه الآخر داخل الثلاجة أو البوتاجاز !

لم أستطع منع نفسى من الابتسام أحيانًا وأنا أراقب هذا السيرك المنتصب أمامى ، والذى لم تكترث له (أم حسن) كثيرًا ربما بحكم التعود والألفة ..

كنت أعرف كما يعرف الناس جميعًا أن للأطفال طاقة جبارة يخرجونها فى اللعب والمشاكسة والمشاغبة أحيانًا ، لكنى أيقنت بأن هذه الطاقة لاتفنى أبدًا لدى أطفال من عينة (حمادة) و(حسن) !

ومر الوقت فى مزيد من حكايات الجيران والزواج والطلاق والخطوبة والغلاء .. إلخ ، وفى مزيد من المشاغبات والصراخ والقفز والضحك والبكاء .. حتى بدأ الظلام ينشر بقعه الداكنة على عباءات الغروب ، وبدأت عقارب الساعة أخيرًا تقترب من السابعة ..

ثم رن جرس الباب أخيرًا ..

استأذنتنى (أم حسن) لتفتح الباب ، وابتسمت بمعنى أنه لامشكلة ، وعندما نهضتُ نحوه فى تكاسل نفضتُ رأسى فى قوة ، كأنى ألقى بكل ما قالته بعيدًا عن عقلى المثقل بالهموم والخواطر المزعجة ..

ـ أهلاً يا أستاذ (ممدوح) .. حمدًا لله على السلامة !

حمدًا لله ، لقد عاد أخيرًا ..

ـ سلمك الله يا (أم حسن) ..

هذا صوته ، وهأنذا أنتفض ناهضة وأشرئب بعنقى جهة الباب ..

ـ .. ما أخبار طفلى الشقى معك اليوم ؟! هل أتعبك كالمعتاد ؟!

وسرت خطوات بطيئة نحو (أم حسن) التى منعنى جسدها البدين من رؤية عمى الواقف فى مواجهتها .. ثم إنى سمعتها تقول مغتبطة :

ـ على الإطلاق .. ليحرسه اللّه ويحميه من كل شر ..

ـ آمين !

ـ بالمناسبة ، لديك ضيوف يا أستاذ !

وشعرت بعمى يجفل للحظة برغم أنى لا أراه ، وسمعته يسأل فى تعجب وأنا ما زلت أقترب حتى أتمكن من رؤيته :

ـ ضيوف ؟! من ؟!

أزاحت (أم حسن) نفسها عن الباب ، وهى تقول مشيرة نحوى :

ـ ابنة أخيك من (مصر) !

توقفت ناظرة فى وجه عمى (ممدوح) المبهوت ، وقد انفغر فاه وغمغم فى غير تصديق بعد أن رآنى :

ـ (نسرين) ؟!

أخذت نفسًا عميقًا ، وبدأت أستعد نفسيًا للمواجهة المرتقبة ..

ـ أجل يا عماه ..

وأردفت فى جمود :

ـ .. أنا (نسرين) !

صمت لثوان وكأنه يحاول ابتلاع الأمر ، وقال مقتربًا منى ومادًا يده للمصافحة :

ـ مرحبًا بك بالطبع .. متى جئت ؟!

نظرت إلى (أم حسن) فى امتنان وأنا أجيبه :

ـ منذ ساعات !

قبلنى ثم سألنى فى توجس :

ـ هل حدث مكروه لاقدر اللّه ؟!

ـ كلا ..

ولم أكن دقيقة أو صريحة تمامًا فى رد كهذا .. إن ما أعانيه يتجاوز هذا اللفظ الواهى الواهن البسيط ؛ (مكروه) !!

ـ لتتفضلى معى إذن إلى منزلى المتواضع ..

قالها عمى وهو يتأبط ذراعى ويجذبنى إلى الخارج ، ثم التفت إلى (أم حسن) قائلاً :

ـ .. أشكرك شكرًا مزدوجًا هذه المرة يا سيدتى ..

قالت (أم حسن) وهى تنظر نحوى مبتسمة :

ـ لاشكر على واجب يا أستاذ (ممدوح) ، ولتعرجى على لتودعينى قبل أن تعودى إلى (مصر) يا (نسرين) ..

ـ إن شاء اللّه !

★ ★ ★

وقفت فى شرفة منزل (عمى) أراقب الشارع الخالى من المارة بالأسفل ، فى حين انشغل هو قليلاً مع (حمادة) قبل أن يأتى إلى معتذرًا :

ـ آسف يا (نسرين) ؛ لم أرحب بك كما يجب يا حبيبتى ..

وباعد بين سبابته وإبهامه طوليًا ؛ عارضًا علىَ واجب ضيافتى :

ـ .. هل أعد لك كوبًا من الشاى ؟!

هززت رأسى نفيًا وأنا أتأتئ ، ثم قلت بلا انفعال :

ـ كلا ، لا أريد ..

كانت الأشياء تدور فى عقلى كمروحة معلقة فى طاحونة .. شعرت بالدوار والإعياء لكنى غالبت نفسى وقلت :

ـ أنت تتساءل الآن بالتأكيد عن سبب مجيئى يا عماه !

هز كتفيه وقال :

ـ ليس بالضبط فأنا أرحب بمقدمك فى أى وقت تشائينه .. فى الحقيقة أتساءل : لماذا لم تخبرينى قبلها حتى أكون فى استقبالك ؟!

قلت هازة كتفى بدورى :

ـ الأمر لم يكن ليحتمل التأجيل ..

قال بنبرة غير مطمئنة :

ـ عسى ألا يكون هذا الأمر سيئًا ..

قلت وأنا أحدق فى عينيه مباشرة :

ـ هذا يعتمد على وقعه فى نفسك !

تنهد عمى ، وقال واضعًا يديه فى جيبى بنطاله :

ـ فى الحقيقة أنتِ تثيرين قلقى .. هات ما عندك مباشرة ..

ألقيت بالقنبلة فى وجهه دون أن أفكر أكثر :

ـ جئت أسألك عن أمى يا عمى العزيز !!

وقعت العبارة عليه كصاعقة مفاجئة ومزعجة ، فانعقد حاجباه بشدة وهو يهتف سائلاً إياى فى استنكار :

ـ من ؟!!

عاجلته بالقول فورًا :

ـ أمى رحمها الله .. (سعاد خورشيد) !

لم يحر الرجل جوابًا ، واستغرق فى التفكير مليًا قبل أن يعاود سؤالى بنفس الاستنكار :

ـ ماذا تقولين يا (نسرين) ؟!

قلت عاقدة ساعدى أمام صدرى فى تحدٍ لامبرر له :

ـ أنا لا أخرف يا عمى .. كل ما هنالك أننى أريد أن أعرف كل شىء ..

وأكدت على الكلمتين الأخيرتين :

ـ .. كل شىء !

سألنى وقد استعاد دهشته الأولى :

ـ ما الذى حدث بالله عليك يا (نسرين) ؟!

صحت وقد انفلتت أعصابى من عقالها مرة واحدة :

ـ حدث الكثير يا عماه .. الكثير جدًا .. لست قادرة على أن أشرح لك أى شىء حتى لا تتهمنى بالجنون .. كل ما أعرفه أننى فقدت قدرتى على الاحتمال .. فقدتها تمامًا !

فوجئ عمى بى وأنا أحدثه بهذه الطريقة ؛ فصمت حتى أفرغ كل مافى جعبتى من توتر ، ولعمرى فهو ليس بالشىء القليل أبدًا ..

ـ هذا كثير .. كثير جدًا ..

قلتها وصوتى يتهدج بالبكاء ، ورفعت كفى لأخفى العبرات التى انسابت كأنهار فجرها الانفعال من مقلتىّ ..

كانت لحظات جد عصيبة ، وكنت قد فقدت قدرتى على الاحتمال فعلاً ، لامجرد كلمات أقولها للاستهلاك أو لاستدرار العطف ..

ووجدته يقترب منى ، يطوقنى بذراعه ويحتضننى فى حنان أبوى جارف ، فبكيت أكثر حتى ارتج جسدى وكدت أنهار ..

ـ ش ش ش .. كفى يا حبيبتى .. كفى يا (نسرين) ..

تمالكت نفسى بعض الشىء .. أخرجت من جيبى منديلاً ورقيًا جففت به دموعى وأنفى، ثم سألته وأنا أتنفس بصعوبة :

ـ كانت أمى مريضة قبل أن تتوفى .. أليس كذلك ؟!

نظر إلىّ مليًا، وسألنى بدوره :

ـ من أخبرك بهذا ؟!

أخرجت له الأوراق التى حشوت بها جيوبى ؛ التقارير والتحاليل الطبية الكثيرة .. نظر فيها فى غير فهم بينما قلت أنا وأنفاسى تنتظم بعض الشىء :

ـ لن تصدق لو أخبرتك أن (حمادة) هو الذى ساعدنى فى العثور على هذه الأوراق !

نظر إلىّ مستغربًا، فأردفت ممعنة فى استثارة استغرابه هذا :

ـ .. وأن أمى بنفسها هى التى تولت إخبارى بالباقى !!

قلب عمى شفتيه للحظات .. تبدى الارتباك والاضطراب والتردد على قسماته فى جلاء،

قبل أن يحسم أمره ويقول فى النهاية :

ـ أجل .. كانت مريضة بالفعل ..

وأردف متنهدًا :

ـ كانت تعانى من ورم فى المخ ؛ ورم خبيث لا شفاء منه إلا بمعجزة لم تتحقق !

لم يكن هذا بعيدًا عن مخيلتى أو توقعاتى .. إنه مرض له علاقة بتخصص أبى، وقد فشل أبى فى تسخير الطب وقتها لتحقيق معجزة صغيرة ؛ من المعجزات التى يبرع فى تحقيقها كل يوم مع مرضاه ..

يا لسخرية الأقدار ..

تذكرت أمرًا آخر فسألته :

ـ وكانت تعلم بما يتنامى بين أبى والسيدة (ألفت همام) ! ريسة تحرير (الأربعاء) التى أعمل محررة فى جريدتها الآن ؟!

حملت تنهيدته هذه المرة مرارة بلا حدود، وهو يجيبنى بصراحة مطلقة :

ـ نعم !

وهز رأسه محدقًا فى المدى كأنه يتذكر :

ـ كانت رحمها الله تعرف كل شىء !!

هتفت وانفعالى يتصاعد مجددًا :

ـ قتلتها هذه الحقيقة قبل حتى أن تموت ..

التفت نحوى وهو يقول على الفور :

ـ بل قضت أجلها عندما حان الموعد الذى اختاره المولى (عز وجل) ..

قلت واضعة يدى على كتفه وقد تذكرت أمرًا آخر :

ـ هل هذا هو السر الذى استودعتك إياه يا عمى ؟!

أمسك بيدى داخل يديه الكبيرتين ، وقال فى نبرة عميقة محدقًا فى عينىَ :

ـ كانت أمك امرأة عظيمة يا (نسرين) ، تعذبت كثيرًا فى حياتها وأرادت للجميع أن يستريحوا وألا يذوقوا ما ذاقته من ويلات .. كانت مبلغ خوفها فى أثناء حملها هو ألا تلد جنينًا يرث منها المرض .. وأعطاها اللّه فتاة غاية فى الجمال والطبيعية والصحة والنضارة ، مكافأة على صبرها

واحتمالها للشداشد .. لم تكره أحدًا فى حياتها قط ، كان قلبها يسع العالم كله حبًا وعطفًا ورحمة وغفرانًا .. لكن حظها كان قليلاً .. والدنيا كانت بخيلة معها بقدر ما تبخل مع من يستحقون كل الخير ..

قلت مأخوذة :

ـ كانت تقطر براءة فى غابة من الذئاب !

قال :

ـ لم يكن الأمر على هذه الصورة من البشاعة ..

قلت فى إصرار :

ـ أريد أن أعرف كل شىء يا عماه .. لن أستريح قبل أن أصل إلى الحقيقة ..

تنهد ، وازداد ضغطه على يدى داخل يديه وهو يقول :

ـ ليكن .. سأروى لك كل ما أعرف إذن ..

خفق قلبى فى قوة ، هأنذا أقترب كثيرًا من الحقيقة التى أصبو إليها ..

ـ .. سأعد كوبين من الشاى أولاً ، ثم نتحدث كيفما شئنا ..

لم أعترض هذه المرة ، وتركته يذهب ..

وقفت أستنشق الهواء الرطيب وقد تسللت بعض الراحة إلى أعماقى أخيرًا ..

ربما لن يكون حديث عمى شافيًا ، لكنه سيضع الكثير من النقاط على أغلب الحروف ، والبقية سوف تأتى عندما أرى أبى والسيدة (ألفت) ..

هأنذا أقترب خطوة منك يا أماه ..

ها هوذا وجهك يتراءى لى فى المدى باسمًا ، فتكاد عيناى تطفران بالدمع ..

ها هوذا ..

رنين هاتفى المحمول المنغوم ، يأتينى لأول مرة منذ أيام ..

قبلت المكالمة دون أن أنظر فى الرقم الوارد ، فلم أكن فى حالة تسنح بالتركيز فى أى شىء ..

ـ آلو ..

ـ مرحبًا يا صغيرتى !

إنه هو ، السيد (س) !!!

صوته الأجش ونبرته الساخرة و(صغيرتى) التى هى أنا !

ـ أنت ؟!

ـ أجل ، يبدو أنك افتقدتنى طويلاً هذه المرة !

سألته بكل اللوعة التى اعتملت فى أعماقى الثائرة :

ـ ما الذى يحدث لى ؟! ماذا يحدث ها هنا ؟!

أتانى الصوت فى أداء كلاسيكى ساخر :

ـ ليس فى الأقدار طرق للاختيار ..

سألته من جديد فى لهفة ، كأنى واثقة من أنه يعرف كل شىء :

ـ هل كنت تعرف أمى ؟! هل كنت موجودًا وأنا بعد رضيعة ؟! هل ...

قاطعنى :

ـ أخبرتك من قبل .. أنا لست أعرف ما تجهلين ..

ترى أين سمعت هذه العبارة ؟!

صحت فيه فى حنق :

ـ ماذا تريد منى إذن ؟!

قال فى روية :

ـ أريد أن أساعدك على اجتياز هذه المحنة ..

ـ وماذا بيدك أن تفعل لى ؟!

ـ سأقابلك ، وجهًا لوجه !

فى سخرية مريرة قلت :

ـ فى أى قناع هذه المرة ؟

قال :

ـ لا تقنعة .. هيا ، فالوقت ضيق ياصغيرتى كما هو دومًا ..

ـ أين ؟!

ـ فى (قصر البارون) !!

صحت مستنكرة :

ـ ولكنى فى (الإسماعيلية) الآن !

قال دون أن يفقد هدوءه :

ـ أعرف ، وأراك الآن واقفة فى شرفة عمك (ممدوح الجبالى) فى الطابق الثالث !!

إن لم أكن قد جننت بالفعل فأنا الآن على حافة الجنون !

أمعنت النظر فى الشارع الخالى من المارة ولمحت ظلاً يبتعد خلف مبنى قريب ..

أيكون هو ؟!

ـ .. لاتتأخرى عن الساعة الثانية عشر يا (سندريلا) ..

نظرت فى ساعة معصمى ؛ إنها لم تبلغ الثامنة بعد ..

ـ والخفير ؟!

ـ أى خفير ؟!

ـ خفير (قصر البارون) !

ـ لن يضايقك هناك أحد ، ولن يعترض طريقك للدخول شىء ..

ثم استعاد حسه الساخر وهو يردف :

ـ .. إن تأخرت يا (سندريلا) فلن تلتقى بـالأمير مطلقًا .. وسيطمر السر فى التراب إلى أبد الآبدين !

وضحك وهو يقول :

ـ .. إلى اللقاء ياصغيرتى .. هناك !

انغلق الخط ، وشردت للحظة ثم قررت أن أتحرك ..

وعندما عاد عمى إلى الشرفة حاملاً صينية عليها كوبان من الشاى ..

ـ هل كنت تتحدثين مع خطيبك فى المحـ ....؟!

وبتر عبارته عندما لم يجدنى هناك ..

التفت نحو باب الشقة فوجده مواربًا إذ هبطت دون حتى أن أغلقه !

أكثر من هذا .. رآنى عبر الشرفة وأنا أدلف إلى سيارة أجرة فى سرعة ، فنادانى بصوت مرتفع :

ـ (نسرييييييين) !

ربما سمعته ، ربما لم أسمعه .. لا أذكر تحديدًا ..

كل ما أتذكره هو أننى قلت للسائق :

ـ محطة الباص من فضلك ..

ولم أنس أن أردف :

ـ .. بسرعة !!

وانطلقت السيارة ، فى حين قطب عمى (ممدوح) الواقف فى الشرفة ، وغمغم فى قلق بلا حدود :

ـ إلى أين ذهبت ..

ولم ينس أن يردف :

ـ .. هذه المجنونة ؟!!

* * *

العودة إلى .. هناك ..

أطول ساعتين مرتا علىَ فى حياتى بأسرها ..

شعرت بأن مسافة طريق العودة من (الإسماعيلية) قد تضاعفت عشرات المرات ، وأخذت أنظر فى ساعة معصمى بمعدل مرة كل عشر ثوان تقريبًا خوفًا من التأخير ..

وبين النظرة والأخرى ، كنت أفكر و (الأدرينالين) يفعل بى أفاعيله .

ها قد اقترن كشف سر السيد (س) بكشف سر وفاة أمى الغامض ..

بالتأكيد سأجد مفاتيح اللغز كلها وقد تجمعت بين يدى هذا الرجل الغامض الذى يعرف كل شىء عن كل شىء .. وعن أى شىء ، دون أن يعرفه أحد ..

ترى هل سأراه حقًا رأى العين هذه المرة ؟!

أم تكون خدعة من خدعه التى لاتنتهى ؟!

هل سيقابلنى بوجه غارق فى الظل كما فعل فى السابق ؟!

هل سيقابلنى أصلاً ؟!

هل يستحق الأمر التضحية بالقصة التى كنت سأسمعها من عمى ، والتى تضمن لى على الأقل بعض التوضيح ؟!

بالتأكيد الأمر يستحق هذه التضحية ..

وهذه المجازفة ..

إن عمى (ممدوح) ـ مع احترامى الشديد له ـ موجود دائمًا ، يمكننى سماع قصته فى أى وقت أشاء ؛ وأن أطلب منه تكرارها مئات المرات ..

أما السيد (س) فلا يظهر إلا عندما يريد ، وأوقات إرادته هذه نادرة بحق ..

وفى هذه المرة بالذات أجده قد اختار وقتًا حرجًا ، وحاسمًا ..

وقت أحتاج فيه بشدة لرجل من عينته ، فلا يفل الغموض أحيانًا إلا الغموض !

وهو بقدراته اللامحدودة يمكنه أن يساعدنى بالتأكيد على فهم هذا الغموض الذى يحيط بأمى وبموتها وبـ ...

مهلاً ..

كيف لم أنتبه لهذه النقطة من قبل ؟!

كيف لم يلفت الأمر نظرى قبل اللحظة ؟!

(سعاد) .. (س) .. السيد (س) !

أمى تملك اسمًا تحمل بدايته نفس الحرف الذى يطاردنى صاحبه فى أحلامى !!

ترى ؛ هل تكون هى ؟!

هل تطاردنى روحها وتحمينى أحيانًا فى هيئة رجل ؟!

ومن أدرانى أنه رجل ؟!

لمجرد صوته الأجش ؟!

هذا ليس مقياسًا نهائيًا بالتأكيد !

رباه ..

هذا يفسر الكثير بالفعل !

يفسر القدرات اللامحدودة لهذا الرجـ.. الشخص الغامض ..

يفسر متابعته لى وجوده فى أكثر من مكان أحيانًا ..

يفسر اتصاله بى أنا بالذات ..

لكن ، ما معنى الظل الذى تراءى لى فى واحدة من الرؤى وقد أصاب أمى من جراء ظهوره هلع شديد ؟!

فكرت فى أنه قد يكون يطاردها أيضًا ، ثم ورثت أنا عنها امتياز المطاردة هذا !

هل كان المشهد مجرد رمز أو رسالة شفرية خاصة بشأن ما ؟!

هل لا يعدو الأمر أن يكون فى النهاية مجرد رموز ؛ تحمل تفسيرًا أكثر بساطة من هذا الذى تصوره لى أحصنة خيالاتى ؛ المنطلقة فى البرارى دون مروّض ..

لِمَ لا ؟!

هأنذا ذاهبة الآن لأعرف وأرى وأسمع كل شىء ..

وها هو ذا الباص يدلف إلى محطته فى (الترجمان) ، فأهبط منه أنا على عجل وأشير لسيارة أجرة توقف سائقها على الفور ..

ربما تستحق الحقيقة كل هذه الثروة التى أنفقها فى سبيل (مواصلاتى) إليها !!

ـ (قصر البارون) من فضلك ..

عقد السائق حاجبيه ، واستدار نحوى قائلاً فى استفهام :

ـ تقصدين فندق (البارون) بـ (مصر الجديدة) ؟!

هززت رأسى نفيًا فى قوة ، وقلت موضحة فى تأكيد :

ـ بل (قصر البارون) نفسه ، على تقاطع (صلاح سالم) مع (العروبة) !

استغرق هضم المسألة من الرجل لحيظات ، قبل أن يقول فى تسليم :

ـ حسنًا !

وسمعته يغمغم وهو يستدير محركًا ناقل السرعات :

ـ .. لله فى خلقه شئون !

بالتأكيد أصابه الذهول من هذه المجنونة التى تريد الذهاب إلى تلك المنطقة البعيدة والمرعبة بعد العاشرة والنصف مساءً ..

ـ .. يوم القيامة اقترب بشدة دون شك !

سمعتها برغم صوت المحرك العالى ، لكنى لم أشغل بالى إلا بأمر واحد ؛ لقد جئت مبكرة عن الموعد المحدد بساعة ونصف تقريبًا ..

ستنكشف الأستار أمامى إذن ..

صحيح إن العاشرة والنصف يعد وقتًا متأخرًا نسبيًا ، لكن .. ليس هناك من سيزعجه تأخيرى أو يقلق لعدم عودتى فى مثل هذه الساعة ..

خطيبى فى (المنيا) ، وأبى فى (مونتريال) ، وأمى بجوار الرفيق الأعلى !

وصحيح أنى من هواة الالتزام بعيدًا عن أى سلطات رقابية ، لكن .. سأكسر القواعد اليوم فقط ، عسى أن تحمل لى الساعات ـ وربما الدقائق ـ القادمة بعض التفسيرات التى تشفى غليلى ..

اليوم فقط ؛ فمن يدرى ؟!

* * *

اقتربت من بوابة القصر دون أن أعبأ بأى نظرات تلاحقنى من المارة أو من سكان البنايات المجاورة .. ودون أن أفكر للحظة واحدة فى التراجع ..

القصر ما زال شامخًا .. صامتًا .. مهجورًا ..

ومخيفًا ..س

بالفعل لم أجد الغفير عند البوابة المفتوحة على مصراعيها كأنها تدعونى للدخول ..

صدق السيد (س) إذن كما توقعت ..

أو صدقتْ !!!

استجمعت شجاعتى الباقية وتجاوزت البوابة ، سرت على الأرض الترابية التى قادتنى نحو السلم المرتفع المؤدى للبوابة الداخلية للقصر ..

ارتجف قلبى من برودة الليل والخوف ، لكنى من جديد لن أفكر فى التراجع ..

ليس بعد أن بلغت هذا الحد ..

وليس عندما يتدخل السيد (س) فى الأمر ..

صعدت فى الدرجات الرخامية نحو البوابة العالية ، بحثت عن الحلقة المعدنية التى قادتنى فى المرة السابقة نحو القبو حيث (إخوة الدم) المرعبون ، غير أنى لم أجدها ..

الظلام يجعل المسألة صعبة ولكن ...

يبدو أننى لن أحتاج إلى سلالم حجرية هابطة هذه المرة ..

فقد انفتح باب القصر المنيف أمامى فجأة ، ومن قلب الظلام ولد ضياء أبيض أعمانى عن الرؤية للحظة ، وشعرت بالريح التى هبت من الداخل فى قوة ..

فتحت عينى فى النهـاية ، لأرى القصر الـذى أضاء مـن الداخل ..

لم يكن أطلالاً مهجورة كما توقعت أن أراه ..

كان نسخة طبق الأصل من القصر الذى رأيت فيه مسبقًا حفل الزفـاف ، لكـن القاعـة الواسـعة التـى تنتهـى بالسـلم العريض خاوية على عروشها هذه المرة ..

كانت الستائر تتطاير ، وشعرى أيضًا ، ولـم أجد للريـاح مكانًا يمكن أن تهب منه ، غير أننى لم أشـغل نفسـى بهـذه النقطة كثيرًا ..

لقد تقدمت أدخل القاعة فى خطوات بطيئة ، كأننى مدفوعـة للدخول بقوة جذب مغناطيسية أكبر من أن أقاومها ..

سـرت علـى الأرض الرخاميـة ، بيـن المقـاعد الوثـيرة والتماثيل النفيسة .. وهناك ؛ عند قمة السلم العالى ، وأمـام صورة الباشا الأرستقراطى مباشرة رأيتها ..

وعرفتها ..

إنها أمى ..

إنها (سعاد) ..

تقف باسمة وتمد ذراعيها فى ترحيب ..

ـ أهلاً بك .. يا صغيرتى !

رداؤها الأبيض الطويل وشعرها الليلى المتناثر يتطايران مع الهواء ، ملامحها نبـع مـن الهـدوء والرقـة والملاحـة ، على رأسها هالة ضوئيـة وفـى يدهـا عصـا قصيرة تنتهى بنجمة ذهبية ، مثل جنيات القصص الخيالية التى لم يقصها على مسامعى أحد ..

فى انبهار بلا حدود واصلت التقدم ، وهتفت مشيرة إليها بسبابتى :

ـ إنه أنتِ إذن .. أنتِ السيد (س) !

قالت ملوحة بعصاها الساحرة :

ـ لا تحدثينى عن الخيال يا طفلتى ، بل عن الواقع حدثينى !

تلفت حولى وأنا أسأل فى ارتباك :

ـ وهل نحن الآن فى دنيا الواقع ؟! أم فى عالم الخيال ؟!

سألتنى بابتسامة تفيض حنانًا :

ـ ما رأيك أنتِ ؟!

ـ أهلاً بك .. يا صغيرتى !

رداؤها الأبيض الطويل وشعرها الليلى المتناثر يتطايران مع الهواء ..

ـ لقد فقدت القدرة على التمييز !

قلتها فى خيبة أمل ، فقالت والضوء يتناثر ذرات من حولها :

ـ لقد رأيت كل ما حدث !

ازدادت نبرة خيبة الأمل فى كلماتى وأنا أقول :

ـ لكنى لم أفهم الكثير ..

قالت بلهجة المعلم :

ـ ذلك لأنك رأيت كل شىء منعكسًا على مرآة عقلك ..

ـ وما العيب فى ذلك ؟!

ـ كثيرًا ما يضلل العقل صاحبه !

قلت وقد انبثق بصيص من النور فى ظلمة أعماقى المدلهمة :

ـ لم يحدث شىء مما رأيت إذن ..

وقالت وهى تلوح بعصاها يمنة ويسرة :

ـ نحن لانرى ولانسمع ولانلمس ولانعى إلا ماتسمح به حواسنا الإنسانية القاصرة ، وهذا مايعمينا دائمًا عن رؤية قلب الحقيقة مهما كان قريبًا منا ..

قلت مأخوذة :

ـ كنتُ أحلم إذن !

عادت تلوح بعصاها قائلة :

ـ بل رأيت كل شيء ، وفسرته بعقلك كما يفعل الناس جميعًا .. إننا لانعيش الحياة ولا نحسها إلا من خلال هذا العقل الضال المسكين !

سألتها وقد اختلط علىّ الأمر :

ـ كل ما حدث قد حدث فى عقلى فقط إذن .. أهذا ما تعنينه ؟!

قالت وقد فردت ذراعيها وأخذت ترفعهما إلى أعلى ببطء :

ـ ما الحياة فى واقعها إلا ما تصوره لنا عقولنا ..وهكذا نقع دائمًا فى مأزق التفريق بين الواقع والخيال .. بين الحلم والحقيقة .. بين الممكن والمحال ..

قلت فى استجداء وقد عجزت عن إدراك كل ما تقول :

ـ أخبرينى إذن عن تفسير كل ما رأيت وسمعت ..

قالت ولما يهبط ذراعاها بعد :

ـ التفسير قابع فى نقطة مظلمة ما من أعماقك يا فتاتى .. وقد اقتربت كثيرًا حتى إننى أخشى عليكِ من الاحتراق فى نيران المعرفة ..

قلت ونبرتى تتهدج :

ـ ساعدينى إذن !

ـ لست هنا إلا لأساعدك !

ثم فردت ذراعيها فجأة ، وتناثرت من عصاها السحرية ذرات ضوئية كثيرة ، تجسدت حولى على هيئة صور مرئية ..

وتلفتُ حولى مبهورة لأقصى حد ..

رأيت (إخوة الدم) جميعًا .. (نهى) و(صلاح) و(جميلة) و (سامى) والباقين ذوى الوجوه المألوفة .. رأيت أبى وعمى و (حمادة) و (هشام) وصديقات وأصدقاء الكلية ..

رأيت الدادة (رئيفة) والعم (خضر) البواب .. رأيت عشرات الوجوه التى رأيتها من قبل فى أماكن كثيرة ، منها من أتذكره ومنها من لم تسعفنى بمعرفته الذاكرة ..

رأيت بين الوجوه وجهًا غارقًا فى الظل ، يتصاعد من أمام فمه دخان سيجارة ، وبرغم تحديقى فيه بإمعان إلا أنى عجزت عن إيجاد ملامح خاصة به ..

ـ السيد (س) !

لم أنطق إلا باسمه ، وبدا من حولى يتحركون فى كل اتجاه كأنهم يمارسون حيواتهم العادية ، إلا هو .. كان ثابتًا فى مكانه لايحرك ساكنًا ، كأنه صورة ثنائية الأبعاد مرسومة بالفحم على جدار الفراغ ..

واستدرت إلى أمى مجددًا أقول :

ـ إنه ليس أنتِ !

قالت وهى تستعيد بسمتها الرءوم :

ـ كل هؤلاء ليسوا إلا صورًا تتحرك داخل خلاياك .. داخل تركيبك الجزيئى .. داخل الذرات الدقيقة المتناهية فى الصغر التى يتكون منها عقلك وجسدك .. وتنأى عنها روحك بتركيب أنقى ممعن فى المجهول !

قلت بنبرة طفولية حزينة :

ـ لست أفهم !

قالت :

ـ ولن تفهمينى ما لم تغتسلى فى مياه بحيرة الحقيقة ..

سألتها فى لهفة :

ـ وأين أجد هذه البحيرة ؟!

قالت ملوحة بعصاها :

ـ يفضى إليها باب واحد موجود فى قبو القصر ..

قلت بحماسة شديدة :

ـ سأذهب ..

قالت فى شفقة :

ـ أخشى عليك من مغبة الاندفاع دون تفكير ..

ـ أريد أن أعرف ، أرجوك يا أماه ..

ـ الاختيار بيدك ، وسيزفك كل من حولك كالعروس حتى القبو ..

وفرقعت بإصبعيها السبابة والإبهام ، فانتظم كل من حولى فى صفين ، ورأيتهم يمسكون بشموع مضيئة لا أدرى من أين أتوا بها ..

إلا هو ، ظل صورة ثنائية الأبعاد مرسومة بالفحم على جدار الفراغ ..

رفعت عينىَ إلى أمى السحرية وسألتها فى شجن :

ـ ألن تأتى معى ؟!

قالت وقد تلاشت بسمتها :

ـ ليتنى أستطيع ..

دنوت من السلم وأنا أسألها من جديد :

ـ ألا أستطيع الارتماء فى حضنك الدافئ ؛ ولو لمرة واحدة ؟!

ترقرقت الدموع على زجاج عينيها الملائكيتين ، ثم قالت فى ألم مكتوم :

ـ للأسف ؛ هذا غير ممكن على الإطلاق ياصغيرتى .. يتمزق قلبى وأنا أقولها لكن نواميس الكون غير قابلة أبدًا للاختراق !

عدت أسألها وأنا أجاهد حتى لا أبكى :

ـ أين أنتِ الآن إذن ؟!

حاولت أن تبتسم وهى تجيبنى فى سعادة :

ـ فى أجمل مكان يمكن أن يذهب إليه إنسان على وجه البسيطة ..

ثم غمزتنى وأردفت :

ـ .. ستعرفين يومًا ما أعنيه ياصغيرتى !

ـ قبل أن أذهب .. هل أنت غاضبة من (ألفت) ؟!

فكرت قليلاً ثم أجابتنى فى صدق :

ـ كلا .. على الإطلاق .. إنها لم تخطئ فى حقى أبدًا !

ـ وأبى ؟!

أجابتنى فى حنين :

ـ إنسان من معدن نادر الوجود هذا الرجل !

ـ والسيد (س) ؟!

ابتسمت وقالت :

ـ لاتتذاكى علىَ يافتاة .. لست أحمل إجابات شافية على كل الأسئلة ..

عدت أسألها فى إصرار :

ـ أهو الظل الذى داهمك فى غرفة النوم عندما ؟!

قاطعتنى بإجابة غير شافية :

ـ ربما !

ثم إنها قالت وهى تتلاشى رويدًا رويدًا من أمامى :

ـ .. علىَ أن أعود الآن ..

ـ انتظرى قليلاً ..

ـ إلى اللقاء يا (نسرين) .. انتبهى لنفسك جيدًا ياصغيرتى !

هتفت بها فى نبرة عالية :

ـ ستبقين إلى جوارى دومًا لتحرسينى .. أليس كذلك ؟!

قالت وهى تشير إلى الظل :

ـ سيتولى هو ذلك على خير وجه .. إلى اللقاء ..

وقبل أن تتلاشى تمامًا ، قالت كلمة أخيرة :

ـ .. وسنلتقى بالتأكيد فى يوم ما .. سنلتقى يا ابنتى الـ...

وذهبت قبل أن تكمل عبارتها ..

لاشىء جميل يكتمل فى هذه الحياة القاسية ..

لاشىء البتة ..

والتفتّ إلى من حولى ، لأراهم جميعًا ..

كلهم إذن إخوة فى الدم ..

كلنا فى الدم إخوة ..

أبى وخطيبى وأصدقائى وكل من أعرف ..

كلهم مغيبون ..

كلهم لاينظرون إلا للمدى المفتوح ..

للأفق البعيد ..

بعضهم يتقدم منى ويحملوننى فوق الأكتاف ، كأننى فى مظاهرة لاينقصها إلا الهتاف .. وأتقدم أنا الموكب ـ محمولة على الأعناق ـ نحو السلم الهابط لأسفل ..

للقبو ..

يغيب الضوء إلا من ذبذبات الشموع ..

ولا أدرى من أين يتصاعد قرع الطبول ..

فى القبو ، اتجه كل أخين نحو جمجمة مثبتة فى الحائط ، ووضع كل منهم شمعة فى إحدى عينيها ، فبدا المنظر مرعبًا بحق ..

طقوس تليق حقًا بإخوة جمعهم الدم ؛ فى رابطة أشد وأقوى وأكثر تماسكًا من رابطة الدم ..

وعلا إيقاع الطبول المتصاعد من اللامكان ..

على الأعناق لا أزال محمولة ، يتجهون بى بين صفين متوازيين نحو باب وحيد فى نهاية القبو ..

الباب المفضى إلى بحيرة الحقيقة بلاريب ..

(.. أخشى عليك من مغبة الاندفاع دون تفكير ..) !

لكنى قد اتخذت قرارى يا أماه ..

لن أكون أقل شجاعة من (أوديب) ، ولن تبلغ العواقب مهما كانت سيئة تلك التراجيديا التى وجد صديقنا الإغريقى نفسه بطلاً لها ..

أنزلونى أمام الباب وابتعدوا ..

وانطلقت من حناجرهم ترنيمات تليق بجلال الحدث ..

وقرع الطبول مازال يعلو .. ويعلو .. ويعلو ..

حتى انفتح الباب فجأة فى انفجار كالقنبلة ، فانبطحوا جميعًا أرضًا ..

إلا أنا ..

لقد امتصنى تيار شديد ..

وبرغم أن ثانية واحدة هى التى فصلت مابين انفتاح الباب وامتصاص التيار لى ، إلا أننى رأيت بحيرة الحقيقة ..

بحيرة من نيران مشتعلة هى ، تسبح فيها وحوش خرافية ؛ أفواهها مفتوحة استعدادًا لوليمة بشرية آتية ..

حاولت أن أتشبث بحافة الباب لكن التيار استمر يجذبنى ..

قاومت حتى كادت عضلاتى تتمزق ..

وفى النهاية ، استسلمت ..

انفكت أصابعى المتشبثة بحافة الباب ..

وطرت مع التيار بعيدًا ..

نحو بحيرة الحقيقة ..

النارية ..

* * *

هنا .. المحطة الأخيرة ..

من بحر الظلام أولد ..

من جنة الحالمين أعود ..

ومن هناك .. تحملنى أجنحة الموج إلى ...

هنا !

* * *

- بدأت تفيق على ما يبدو ..

- جيد ..

عيناى تتفتحان لكن الصورة مشوشة ؛ تشبه ما نراه على شاشات التلفاز عند وقوع هوائيات الاستقبال فوق السطوح !

أسمع أصواتًا مألوفة .. وتبدأ منطقة تمييز الأصوات داخل جمجمتى فى عملها المعقد ..

- لا يوجد خطر إذن ؟!

هذا صوت عمى (ممدوح) ..

نعم هو ...

متى أتى وكيف ولماذا و ... ؟!

- إنها تهوى دائمًا تعريض نفسها للخطر !

هذا (هشام) !!

لقد عاد إذن من (المنيا) ، هذا صباح اليوم الرابع لسفره ومن الطبيعى أن يكون قد عاد ..

واضح أن موقفى حرج جدًا !

- أعتقد أن معدلاتها الحيوية مستقرة كما يوحى المظهر وقياس النبض !

أما هذا الرجل الجالس على حافة السرير الذى أرقد عليه فى سكينة ، والذى يمسك برسغى داخل قبضته ، ناظرًا فى ساعته ، ومتحدثًا بنبرة جهورية تليق بأستاذ جامعى مخضرم ، وبلهجة تفوح منها روائح الريف البعيد .. فهو ليس إلا ...

الدكتور (مشهور فراج) بنفسه !

نعم .. الصورة التى أراها تتضح تدريجيًا ، كما تتضح على شاشات التلفاز بعد أن نعدل من وضع الهوائيات الساقطة فوق السطوح ..

ها هو ذا بملامحه الهندسية وشعره الفضى وحاجبيه الأسودين مرتديًا واحدة من حلله الأنيقة اللامعة ..

- صباح الخير أيتها الجميلة !

قالها عمى (ممدوح) باسمًا ، ها هو ذا جالس على مقعد فى الركن ، مبتسم فى أبوة دارت علامات الإجهاد المحفورة على قسماته ، وعاقد ساعديه أمام صدره ..

ـ صباح الخير ..

غمغمت بها فى نبرة خفيضة جدًا ، ثم بدأت فى إدراك ما حولى ..

أنا فى إحدى حجرات مستشفى أبى التى تعودت على دخولها بعد كثير من مغامراتى المفعمة بالتهور والاندفاع ، وضوء النهار البكر يلمع من بين خصاص النافذة المسدلة .

لقد ذهب الليل إذن .

وانبلج فجر الحقيقة !

الدكتور (مشهور) بجوارى مشغول بقياس النبض ، وعمى (ممدوح) جالس هناك ، أما عن (هشام) فقد كان واقفًا بجوار باب الدخول .. وربما أكون فى غنى عن وصف حالته لمن يعرفونه مثلى جيدًا ..

سألنى فور أن وقعت عينى عليه :

ـ ماذا كنتِ تفعلين أمس فى (قصر البارون) ؟!

طريقة ممتازة ليعبر بها عن مدى افتقاده لى فى أثناء سفره !

لم أقو على الرد ، وربما لم أجد الرد المناسب ، فتولى عمى (ممدوح) الأمر عنى مشكورًا بقوله :

ـ دعها تسترد وعيها كاملاً أولاً ..

سألت بصوت واهن ، وكان سؤالى موجهًا للجميع :

ـ ماذا حدث ؟!

قال الدكتور (مشهور) وهو يضع يدى إلى جانبى فى رفق :

ـ ربما تخبروننا أنتِ .. فكلنا لانستوعب شيئًا مما حدث !

قال (هشام) مؤيدًا وقد أعطاه قول الدكتور فرصة مثالية للانفجار :

ـ هذا صحيح .. لقد عدت قبيل منتصف الليل من المأمورية فى (الصعيد) ، وهاتفتك مرارًا فى المنزل وعلى المحمول لكن أحدًا لم يرد ..

سأعاتبه فيما بعد على عدم اتصاله بى واطمئنانه علىّ ولو لمرة واحدة فى أثناء غيابه

ـ .. أتيت إلى هنا فأخبرونى بسفر الدكتور فجر أمس ، يممت شطر المنزل وأنا أكاد أجن لأجد الأستاذ (ممدوح) بالأسفل لايدرى هو الآخر ماذا يفعل !!!

وقال عمى راويًا الأمر من وجهة نظره :

ـ أتيت خلفك من (الإسماعيلية) بعد أن تركتنى فجأة دون سابق إنذار ودون مبرر ، لقد سمعتك وأنت تتحدثين فى المحمول بصوت مرتفع وبعدها رأيتك تركبين سيارة أجرة عند نهاية الشارع .. خفت أن يكون فى الأمر مكروه فبدلت ملابسى وهرعت إلى أقرب سيارة أجرة بين المحافظات ، وذهبت إليكِ فى المنزل لكنى لم أجدك .. فقررت انتظارك بالأسفل عند مدخل البناية حتى تعودى !

وتابع (هشام) :

ـ حتى جاءنى ذلك الهاتف على محمولى ..

من السيد (س) ؟! كدت أسأل لكن (هشام) تابع كرشاش لايتوقف عن إطلاق رصاصته :

ـ .. ضابط زميل فى المباحث قال لى إنهم قد تلقوا بلاغًا من مجهول يفيد بأن خطيبتى ترقد الآن فاقدة الوعى داخل القاعة الرئيسية المهجورة من (قصر البارون) !!

إنه هو .. السيد (س) بلاشك !!

آسفة يا (هشام) على ما سببته من حرج بين زملائك ، ربما تعذرنى عندما أقص عليك كل ما حدث لى !

ـ .. ذهبت أنا والأستاذ (ممدوح) فى سيارتى على الفور إلى هناك .. أخبرنا الخفير أنه لم ير أحدًا يحاول الدخول أو التسلل اليوم .. دخلت بسلطة الشرطة ووجدتك بالفعل ساقطة على بعد خطوات من باب الدخول الكبير .. حملناك بسرعة إلى هنا خشية أن ...

سألت فى دهشة مقاطعة إياه :

ـ لم أكن فى القبو إذن ؟!

أغاظ سؤالى (هشام) إلى حد أنه انفجر فىّ صائحًا :

ـ أى قبو ؟! ماذا كنتِ تفعلين هناك ؟!

ثم انتبه إلى إنه يتجاوز قواعد التهذيب المتعارف عليها ، فلاذ بالصمت وإن احتقن وجهه أكثر ، فى حين قال الدكتور (مشهور) وقد أتى دوره فى رواية القصة :

ـ أما أنا فقد وجدت هاتفى يرن فى الخامسة صباحًا ، وكان المتحدث هو صديقى الدكتور (فاروق الجبالى) يطلب منى الحضور إلى مستشفاه فورًا لأن ابنته فى أمس الحاجة إلىّ !!

غرقت فى الصمت والذهول بينما تابع هو :

ـ ولم أستطيع التأخر أبدًا عن صديق عمرى .. أو عن ابنته !

قلت دون أن أنجح فى التغلب على ذهولى :

ـ لكنه فى (مونتريال) !

قال باسمًا فى وقار :

ـ هذا ما يحاولون إقناعى به ها هنا !

قلت وأنا أهز رأسى فى تفهم :

ـ إنه هو بالتأكيد ..

سألنى (هشام) غير مخف حنقه :

ـ مرة أخرى ؟!

قلت فى ثقة ، وأنا ابتسم لأول مرة :

ـ ولن تكون الأخيرة !

سأل عمى (ممدوح) مستغربًا :

ـ من تعنيان ؟!

لم أرد ، وقال (هشام) مغالبًا ضيقه العارم :

ـ شخص غامض لا اسم له ولا هوية .. يتنكر فى أى شكل ويقلد جميع الأصوات !

هنا انفتح باب الغرفة ، ومن الخارج برز شخص أعرفه ..

ـ صباح الخير ..

شاب برأس حليق تمامًا ، وعوينات صغيرة مستديرة وملونة ، وجلد مشدود يلمع كأنه مدهون بالورنيش ..

ـ هل هذه غرفة الآنسة (نسرين الجبالى) ؟!

يرتدى هذه المرة ملابس عادية ، قميص وبنطلون (كلاسيك) غاية فى الأناقة والتناسق ..

ـ من تكون ؟!

سأله (هشام) الواقف بجوار الباب فى سماجة ..

ـ (سامى تيمور) !

أجاب بابتسامة ، فالتفت الدكتور (مشهور) نحوه فى استغراب ..

ـ هل من خدمة نقدمها لك يا سيدى ؟!

قالها عمى (ممدوح) ، فقال (سامى) وبسمته تتسع :

ـ إننى مدعو للحضور !

ـ ومن دعاك ؟!

سأله (هشام) بفظاظة تجاوزت حدودها ، فقال (سامى) ببساطة :

ـ لا أدرى ، شخص ما هاتفنى فجرًا وأخبرنى أن الآنسة (نسرين الجبالى) تنتظرنى فى العنوان التالى ، وأعطانى عنوان المستشفى ورقم الغرفة !

سأله الدكتور (مشهور) فى سخرية :

ـ أنت أيضًا ؟!

بكل الاحترام حياه (سامى) قائلاً :

ـ صباح الخير يادكتور (مشهور) .. إنه لمن دواعى سرورى أن ألقاك مرتين فى أسبوع واحد !!

ـ الشرف لى ياسيدى !

عاد (هشام) يسأل (سامى) كأنه يستجوبه فى تحقيق رسمى :

ـ وما الداعى لحضورك ياسيدى ؟!

قال دون أن يضجر :

ـ إنه من دواعى عملى .. أن ألبى نداء من يحتاج إلىّ !

وقلت أنا حاسمة هذا الجدل العقيم :

ـ تفضل ياسيد (سامى) .. اتركوه يدخل من فضلكم ..

مادام السيد (س) قد اتصل به ليحضر (ومن سواه يمكن أن يفعل هذا ؟!) ، فهو على الرحب والسعة !

قال (سامى) وهو يدخل مغلقًا الباب خلفه :

ـ أنت (نسرين) ؟!

ـ أجل ..

وقال (هشام) داعيًا إياه بإشارة من يده للجلوس :

ـ لايوجد هنا من يصلح لحمل هذا الاسم سواها على ما أعتقد !

ـ سيد (سامى) .. هلا طلبت منك أمرًا ؟!

ـ مرينى ..

قالها قبل أن يجلس ، فقلت على الفور :

ـ اقترب منى إذا سمحت لى ..

كنت أعرف أننى أستثير غيرة (هشام) ، لكنى لم أضع هذا فى حسبانى و(سامى) يقترب حتى وقف بجوار السرير تمامًا ..

ـ أرنى إبهامك الأيسر إن أذنت لى ..

ـ ولماذا ؟!

سأل (سامى) وهو يرفعه بالفعل ، وابتسمت أنا فى أعماقى مغمغمة :

ـ كما توقعت !!

لم يكن إبهامه يحمل آثارًا لجروح من أى نوع !

ـ .. تفضل اجلس .. وستعلم كل شىء !

عاد (سامى) إلى مقعده مستغربًا ، فى حين نظر الدكتور (مشهور) إلىّ قائلاً بنبرته الجهورية الحازمة :

ـ أعتقد أنك مدينة لنا جميعًا الآن بالكثير من التفسيرات !

ـ هذا حقيقى ، ولكن ...

صمت للحظة نظرت فيها فى الوجوه الأربع الشاخصة إلىّ فى ترقب ، ثم تابعت :

ـ إنها قصة طويلة !

قال الدكتور مشهور :

ـ الطب النفسى يعلم من يمتهنه فضيلتى الصبر والاستماع !

وقال (سامى) :

ـ وعلم الروحانيات كذلك !

وقال (هشام) :

ـ ماذا عن الشرطة ؟!

أما عمى (ممدوح) فقال :

ـ اسألينى أنا عما تلقنه الحياة من دروس للإنسان !

تنهدت تنهيدة طويلة ، ثم قلت فى النهاية :

ـ ليكن ..

وشرعت على الفور فى رواية كل ما حدث عبر الأيام الثلاثة الماضية ..

رويت كل شىء دون أن أهمل تفصيلة واحدة ، منذ زيارة عمى (ممدوح) وعبث (حمادة) الذى دلنى على حاجيات أمى القديمة ، ثم استخدامى لحاجياتها والتغيرات التى طرأت على سلوكى بعدها ، ثم لقائى بـ (نهى) و(صلاح) و(جميلة) وذهابى للقصر فى المرة الأولى حيث التقيت بالسيد (سامى) والسيد (س) و (إخوة الدم) ، ثم غرقى فى عالم الخيالات ومارأيته فيه ، حتى لقائى الأخير بأمى وقرارى بالسباحة فى بحيرة الحقيقة !

ذاكرتى كانت تحفظ كل شىء ، لأن عقلى كان يروم تفسيرًا لكل شىء ..

ـ .. ثم أفقت لأجد نفسى ها هنا .. هذا كل ما حدث !

... وران الصمت ، فلم أسمع صوتًا باستثناء الأنفاس المبهورة !

تلاقت العيون فى نظرات جانبية ، وغرقت بعضها فى بحور التأملات ، فى حين انغلقت بعضها مسافرة بعيدًا ..

كان (هشام) هو أول القائلين :

ـ هل تريدين رأيى بصراحة ؟!

أومأت له أن نعم ، فقال بلهجة لم أميز مغزاها :

ـ لقد جننتِ يا حبيبتى لا محالة !

ـ أشكرك .. ما رأيك أنت يا عماه ؟!

فتح عمى (ممدوح) عينيه المغمضتين ، وتردد طويلاً قبل أن يقول فى عمق :

ـ رأيى ؟! رأيى أن ما سمعته مفزع يا (نسرين) ..

ـ مفزع ؟!

نطقتها باستنكار ، فأكد على ما قال :

ـ وبشدة !

سأله (هشام) :

ـ ما المفزع فيه تحديدًا يا أستاذ (ممدوح) ؟! تعنى الجزء الخاص بالإخوة والقصر والشموع والجماجم و ...

هز عمى رأسه فى قوة وقال مقاطعًا :

ـ كلا ، بل الجزء الخاص بالرؤى .. فهو دقيق إلى حد لا يوصف !

سألته مأخوذة :

ـ حقًا ؟!

ـ وكأنك شاهدت كل شىء وقت حدوثه بالفعل يا (نسرين) !

أيده الدكتور (مشهور) بقوله :

ـ لا يسعنى إلا أن أشهد بهذا بشأن الجزء الذى رأيته فى عيادتى النفسية .. لقد رويته بأدق مما أتذكره أنا نفسى !

غمغم (هشام) بنبرة خفيضة سمعتها بصعوبة :

ـ لم أتوقع هذا !

وعاد عمى (ممدوح) يقول :

ـ كل شىء فى موضعه لولا الترتيب .. لقد قلت لعمى (إبراهيم) رحمه الله فى حفل زفاف أخى إننى لن أتزوج إلا إن وجدت من تركع تحت قدمى بالفعل .. ويوم أن طلبت (سعاد) رحمها الله أن تلقانى لآخر مرة قبل أن تتوفى كنت مسافرًا لـ (الإسماعيلية) .. حتى التفصيلة الدقيقة الخاصة بدخولى على (فاروق) حاملاً المجلة، كنت وقتها أملك نسخة من مفتاح المنزل إذ كنت من يتولى رعاية شئونه فى أثناء غياب (فاروق) و(سعاد) فى المستشفى للاطمئنان على أحوال (سامر) !!!

.. وأثار الاسم الأخير حفيظتى ..

ـ من ؟!

هتفت بها وأنا أعتدل من نومتى كأن عقربًا لدغنى، فاتعقد حاجبا عمى وهو يسألنى فى توجس :

ـ ألم ترى كل شىء ؟!

قال الدكتور (مشهور) هازًا رأسه فى تفهم :

ـ ربما ظلت هناك علامات استفهام كثيرة ..

هتفت وقد بلغ بى الانفعال مبلغه :

ـ من (سامر) هذا ؟!

هز عمى (ممدوح) رأسه متفهمًا هو الآخر، وقال مهدئًا إياى :

ـ دعينى أروى لك القصة من البداية، وقد يصلح الدكتور (مشهور) ما أقع فيه أنا من أخطاء ..

هز الدكتور (مشهور) رأسه فى موافقة، وتنحنح (هشام) قائلاً فى حرج :

ـ سأستأذن أنا إن كان فى الأمر خصوصيات عائلية !

هتفت به :

ـ بل ابق .. من حقك أن تعلم عنى كل شىء !

سأل (سامى) فى براءة :

ـ ماذا عنى ؟!

ـ ستبقى أنت أيضًا مادام السيد (س) قد أراد هذا !

ونظرت إلى عمى (ممدوح) ..

ـ .. والآن ؟!

وشرع على الفور فى رواية القصة التى دارت فصولها منذ أكثر من عشرين عامًا ..

★ ★ ★

قال عمى (ممدوح) :

ـ تم التعارف بين (فاروق) و(سعاد) فى إحدى المستشفيات التى انتدب فيها للعمل جراحًا ، بينما كانت تتولى هى الإشراف على الأدوية والمعدات الطبية الواردة إليها ، أدى (كيوبيد) واجبه معها على أكمل وأجمل وجه ، لكن عائلة (خورشيد) رفضت تزويج درة بنات العائلة لشاب من الطبقة الوسطى حتى لو كان طبيبًا ناجحًا وماهرًا .. أصرت الفتاة فلم تجد العائلة بديلاً عن الموافقة .. وتم الزواج فى قصر أبيها الأسطورى بـ (المنصورية) كواجب أخير تجاهها ، وحفظًا لماء الوجه أمام أبناء طبقة الأثرياء العريقة والجديدة التى أفرزتها السبعينيات .. وبعدها كانت القطيعة .. لم تكن حربًا درامية كالتى نشاهدها في الأفلام بينهم وبينها بقدر ماكانت جفاءً وابتعادًا وإهمالاً .. وهكذا خرجت (سعاد) من جنة العائلة الثرية إلى جنة أخرى أخذت تبنيها مع (فاروق) خطوة فخطوة .. ويدًا بيد ..

قال عمى (ممدوح) :

ـ حملت (سعاد) فى جنينها الأول .. ومع أعراض الحمل الطبيعية كالغثيان والقىء بدأت تشعر بصداع متكرر غير محتمل

واضطرابات فى الرؤية وفى النوم .. شعرت بالقلق مع استمرار الأعراض وزيادتها حتى الشهر الخامس فقررت أن تذهب من فورها إلى طبيب للكشف الكلى على جسدها ، دون أن تخبر (فاروق) حتى لاتثير قلقه عليها أو على الطفل القادم .. واختارت الدكتور (مشهور فراج) صديق الأسرة الصغيرة المكونة من اثنين فقط ، وثالث فى الطريق ..

قال الدكتور (مشهور) :

ـ لم أكن بارعًا فى تفسير أعراضها الجسمانية ، لكنى ساعدتها بقدر ما استطعت .. صحبتها لعمل الأشعة وزكيت لها طبيبًا صديقًا متخصصًا ؛ عندما اكتشفنا أن التشخيص وبكل أسف وألم هو : ورم فى المخ ..

قال عمى (ممدوح) :

ـ أخفت (سعاد) الأمر عن (فاروق) حتى وضعت حملها الأول .. صبى جميل أطلقوا عليه اسم (سامر) !

قال الدكتور (مشهور) :

ـ لقد ولد بعيب خلقى فى القناة العصبية .. فوُضِع فى حضانة خاصة وتمت رعايته بكل السبل المتاحة حتى بلغت

حالته درجة حرجة .. مما جعل (فاروق) يقرر أن يجرب تقنية جراحية جديدة عليه فى سبيل إنقاذه .. لكن الوليد توفى فى غرفة العمليات قبل حتى أن تنتهى الجراحة .. وتضاعفت المأساة بعدها بمرض (سعاد) النفسى إلى جوار مرضها العضوى الذى استمر يلتهم مخها وجسدها بلا رحمة .. فقد شعرت بأنها أورثت الجنين خلايا مرضها وجيناته المعطوبة .. وأنها لو لم تكن مريضة لما ولد الجنين مريضًا .. كان إحساسًا ضلاليًا عميقًا بالذنب بدأت بعده وبسببه فى أخذ جلسات علاجية فى عيادتى!

قال عمى (ممدوح):

ـ على الجانب الآخر نشرت (ألفت همام) صديقة (سعاد) تحقيقًا فى قسم الحوادث بالمجلة تحت عنوان مثير للغاية: «طبيب يقتل ابنه الرضيع فى غرفة العمليات» .. وقد أحضرت لـ(فاروق) نسخة المجلة فى أثناء ذهاب (سعاد) لأخذ جلسة علاجية من الجلسات الأولى لدى الدكتور (مشهور) .. وعلمت بعدها أن (ألفت) قد ذهبت لتعتذر له فى العيادة لكنه قابلها بعنف .. وفى خضم هذه الأحداث، ظل خبر مرض (سعاد) الأصلى خفيًا على (فاروق)!

قال عمى (ممدوح):

ـ واستمرت الحياة أيامًا تلو أخرى .. أراد (فاروق) أن تقطع (ألفت) علاقتها بالأسرة لكنه لم يخبر (سعاد) بهذا حرصًا على حالتها النفسية، ووافق على استمرار علاقتهما كصديقتين على مضض .. أخفى هو عنها سر التحقيق المنشور وأخفت هى عنه سر مرضها الخبيث، إذ كان كلاهما يخشى على الآخر عواقب المعرفة، وبشاعة الحقيقة ..

قال الدكتور (مشهور):

ـ وحملت (سعاد) ثانية .. ومع هذا الحمل كانت حالتها النفسية تسوء لإحساسها المرضى بالخوف من تكرار المأساة، كما كانت حالتها الجسمانية فى تدهور مستمر تحت تأثير الورم المتنامى فى شراسة .. أذكر أن (فاروق) قد أخبرنى أنها كانت تصرخ فى هستريا داخل غرفة الولادة فى المرة الثانية إلى حد أنها اتهمته بمحاولة قتلها .. كانت لاتعى شيئًا مما تقول نتيجة للضغط الرهيب الذى تتعرض له يوميًا ..

قال عمى (ممدوح) :

ـ وأتيت أنتِ يا (نسرين) .. طفلة فاتنة ومكتملة النضارة والحيوية والصحة .. جئتِ وملأت الدنيا من حولنا بهجة وصراخًا محببًا .. أحس (فاروق) أن الدنيا قد ابتسمت أخيرًا، على حين بدأت (سعاد) تستشعر أن نهايتها قد أصبحت أقرب إليها من حبل الوريد !

قال الدكتور (مشهور) :

ـ الحقيقة أنها كانت تشعر بهذا من قبل الولادة، وكانت قد وضعت فى ذهنها خطة ظنت أنها محكمة لكى تقرب بين (فاروق)، و(ألفت) !! لم تصارح سواى وعمك بهذا السر أبدًا، وكنت أنا أرفض الفكرة لأنى أعرف أن (فاروق) لن يستجيب أبدًا لهذا الأمر، وأخبرنى هو أن عمك رافض لها أيضًا ..

قال عمى (ممدوح) :

ـ كانت حجتها أنها لاتريد تركك دون أم، وأن (ألفت) هى خير من تثق به للقيام بهذا الدور، لكنى لم أكن قد صالحت نفسى بشأن ما فعلته (ألفت) معها عندما ضربت بصداقتها عرض الحائط فى سبيل نصر صحفى، لكنى لم

أكن أستطيع مصارحتها بهذا الأمر احترامًا لرغبة أخى وخوفًا عليها من الصدمة .. كانت تريد السعادة للجميع، لك ولـ (فاروق) ولـ (ألفت)، وإن كنت لا أدرى هل تعرف الأخيرة بهذه الخطة أم لا .. ما أستطيع ضمانه لك أن (فاروق) لم يكن يعلم !

قال عمى (ممدوح) :

ـ ثم ماتت فجأة .. أتانى الخبر فى (الإسماعيلية) فأتيت مهرولاً .. وعلمت بعد أن مرت الأحزان أن (فاروق) قد دخل عليها الغرفة فوجدها ساقطة على الأرض أمام المرآة فاقدة للحياة، بينما كنتِ أنتِ على السرير تصرخين وكأنك قد أدركت بسنك الذى لم يتعد شهورًا محدودة حجم المصيبة ..

قال الدكتور (مشهور) :

ـ كان فقدها عصيبًا علينا جميعًا .. وقد اكتشف (فاروق) من خلال أوراق التحاليل والتقارير الطبية ـ فيما بعد ـ بأمر الورم الذى كانت تعانى منه، والذى تسبب فى اقتراب نهايتها على هذا النحو بمشيئة الله (سبحانه وتعالى) بالطبع .. وعلم أننى أعلم .. فاعتكف وحده فى غرفة نومه طويلاً، وتناول أطنانًا من مضادات الاكتئاب، قبل أن يخرج إلى الدنيا من

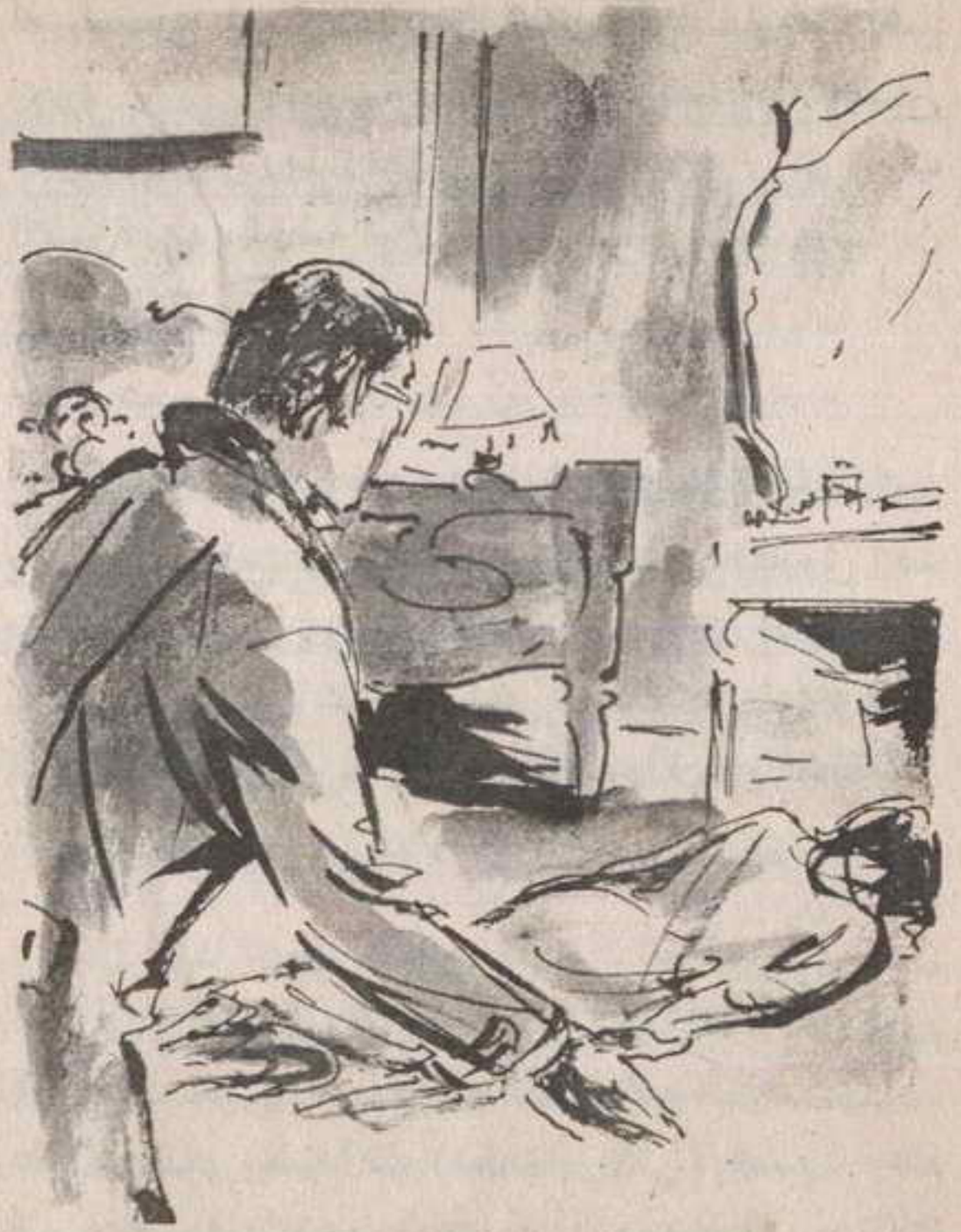

وعلمت بعد أن مرت الأحزان أن (فاروق) دخل عليها الغرفة فوجدها ساقطة على الأرض أمام المرآة ..

جديد ويدفن نفسه فى دوامة العمل والمرضى والمستشفى .. كأنه يعاقب نفسه هو الآخر على ذنب لم يقترفه .. ومنذ حينها وعلاقتى لم تعد كما كانت .. لم نعد أكثر من زميلى عمل يلتقيان بالصدفة ، بعد أن كنا صديقين حميمين .. كأنه يعاقبنى أنا الآخر على جرم إخفائى خبر مرضها عنه !

قال الدكتور (مشهور) :

ـ لكن الحقيقة كانت ببساطة أنه ورم لا علاج له .. وأن قضاء الله نفذ على الرغم من أنوفنا جميعًا .. لحكمة جليلة لا يعلمها إلا هو وحده !

قال عمى (ممدوح) :

ـ هذه هى القصة يا (نسرين) .. بكل تفاصيلها المؤلمة ..

* * *

(.. الزمن يا صغيرتى هو اسم اللعبة .. الرهيبة ..) !

(.. أنتما أكبر تراجيديا مأساوية رأيتها وعشتها فى حياتى يا سيدتى .. أعنى أنتِ و(فاروق) بالطبع ..) !

(كثيرًا ما يضلل العقل صاحبه ..) !

* * *

الصمت إلا من الأنفاس اللاهثة مجددًا ..

دام طويلاً جدًّا هذه المرة ..

(هشام) أطرق ناظرًا إلى الأرض وقد صدمه ما يسمع إلى الحد الذى ألجم لسانه المنطلق دومًا عن الحديث ..

(سامى) احتفظ ببسمته الهادئة وملامحه التى تظهر التعاطف فى غير إفراط ..

عمى (ممدوح) والدكتور (مشهور) تبادلاً النظرات ذات المعنى الخفى، وإن لاحت فى العيون نظرات مستريحة من هموم السنين البعيدة ..

كم كنت محقًّا يادكتور (مشهور) عندما وصفت ما يحدث لأمى بالتراجيديا المأساوية !

ـ رباه .. أهذا ما حدث ؟!

استطعت أن أغمغم بها فى النهاية بعد جهد جهيد، ثم نظرت إلى الدكتور (مشهور) أسأله :

ـ .. وما علاقة (إخوة الدم) بكل هذا إذن ؟!

تنهد الدكتور (مشهور)، جرع من كوب الماء الموضوع على الطاولة المجاورة لسريرى حتى يبتل ريقه، ثم قال :

ـ لقد تحدثنا عن الماضى .. ويأتى الآن دور الحاضر ..

ونظر نحو (هشام) متابعًا :

ـ من وجهة نظر الطب النفسى فالأمر لا يبتعد كثيرًا عما أطلق عليه الرائد (هشام) مصطلح (الجنون)، وإن كان ليس مصطلحًا علميًّا بما يكفى ..

قلت مجارية إياه فى دعابته التى لم تضحكنى :

ـ تعنى أننى قد جننت يادكتور ؟!

ابتسم ليوضح أنه كان يمزح، ثم استطرد قائلاً :

ـ ما حدث ليس إلا حالة فريدة امتزجت فيها الهلاوس بالأوهام بالضلالات، على المستويات البصرية والسمعية والإدراكية وربما الشمية والحسية أيضًا .. ولكى نفرق مبدئيًّا بين المصطلحات، فإن الهلوسة هى إدراك حسى دون وجود منبه خارجى، مع رسوخ الاعتقاد بوجود هذا المنبه .. والتوهم هو الإدراك الخاطئ لهذا المؤثر الخارجى كألعاب يلعبها العقل لتفسير المؤثرات تفسيرًا غير صحيح .. هناك مثال شهير للتفرقة بينهما يمتثل فى الحبل .. عندما أرى الحبل ثعبانًا فهذا توهم أو خداع بصرى، أما لو رأيت ثعبانًا دون

وجود حبل ، فهذه هى الهلوسة .. تبقى الضلالات وهى سيطرة أفكار خاطئة على المرء وينبع منها الوسواس القهرى وضلالات العظمة والشعور بالذنب .. إلى آخره .. ربما تكونين فى مرحلة مبكرة من مراحل (الفصام) وربما لايعدو الأمر مجرد تجربة شديدة الخصوصية لك فى عالم الاضطرابات النفسية !

التقط الدكتور أنفاسه ثم عاد يستطرد :

ـ .. لقد تهيأ لك الجو النفسى عندما استخدمت حاجيات أمك الخاصة أمام المرآة وجرحتِ ثم سقطتِ غائبة عن الوعى .. فى هذه اللحظة بالذات انفتحت أبواب اللاوعى الكامن فى أعماق عقلك الباطن ، فنهضت دون وعى منك وغيرتِ ملابسك ورتبتِ الحجرة وأعدتِ كل شىء كما كان .. ثم نمتِ بهدوء على سريرك لتستيقظى صباحًا وتجدى أن كل شىء قد تغير على نحو غير مبرر .. بعدها بدأ نمط سلوكك يتغير نتيجة للدوافع النفسية التى ولدها الموقف ، وبدأتِ فى ربط كل شىء بمصير أمك الذى لاتعرفين عنه شيئًا .. ثم بدأت مرحلة الهلاوس والأوهام والضلالات ، على هيئة استعادة دقيقة لمواقف وذكريات لم تعايشيها ، واسترجاعها من منطقة (الأميجدالا) أو (القشرة اللوزية) الواقعة على جانبى المخ فى اتجاه طرفى الجمجمة .. هناك أبحاث كثيرة

فى هذا الصدد نشرت مؤخرًا لامجال الآن لسرد نتائجها عليك ، لكن وبهذا الشكل المبسط وجدت نفسك تعودين إلى الماضى على شكل الروح الهائمة الشفافة التى تتحدثين عنها ، وأصبحت ترين الجرح الذى فى إبهامك الأيسر على كل من تيسر لك رؤيتهم مؤخرًا ، بالذات من يعيشون دون ذويهم مثلك .. وامتزج كل هذا لديك بخوفك القديم من كيان مرعب مثل (قصر البارون) .. فى الغالب لم تزرك جارتك من الأصل ، ولم تذهب معك إلى القصر ، ولم يكن هناك احتفال ولا إخوة ، كل ماحدث قد حدث وأنتِ جالسة على المقعد الهزاز فى الصالة .. داخل عقلك فقط كما أخبرتك أمك بعد أن رأيتِها فى نفس المكان .. وفى (الإسماعيلية) داهمتك نوبة أخرى على هيئة اتصال هاتفى من هذا الشخص العجيب غير المعروف الذى تقولين إنه يطاردك فى كل مكان .. دفعتك لزيارة القصر فى الواقع هذه المرة حيث وجدناك ، وحيث رأيتِ كل من تعرفينهم فى هذه الدنيا كإخوة لك فى الدم ، ربما حدث لك هذا تلقائيًا هناك ، وربما كان هناك من ينتظرك بالفعل ليهيئ لك الجو الوهمى الذى رأيته عن طريق ضربة فى الرأس أو غاز مخدر مثلاً .. وهكذا تمثلت لك الأم على هيئة الروح الحارسة التى تريد إرشادك نحو الحقيقة ، والحقيقة أن هذا كله لم يحدث إلا فى عالم خاص داخل عقلك أنتِ يافتاة !

صمت الدكتور وقد انتهى من تفسيره الوافى، وقال عمى (ممدوح) فى إعجاب :

ـ تحليل منطقى للغاية يا دكتور ..

التفت الدكتور إلى (سامى) الجالس مبتسمًا ليسأله :

ـ أهذا رأيك أنت الآخر يا سيد (سامى) ؟!

لم يرد السيد (سامى)، ونظر إلىَّ قائلاً بصوته الهادئ النعسان :

ـ افعلى ما أطلبه منك إذا أذنتِ يا آنسة (نسرين) ..

نظرت إليه ..

ـ .. ارفعى يدك اليمنى ..

فعلت ..

ـ .. أغمضى عينيك ..

أغمضت ..

ـ .. خذى نفسًا عميييقًا !

أخذت ..

وكان هو يفعل ما أفعله أنا بنفس الترتيب ..

ـ .. إن تيار طاقتك الروحية يسرى الآن عبر الأثير من يدك إلى يدى !

ـ يا للهراء !

سمعت من يهمس بها لكن صوت قائلها اختلط علىَّ فلم أعرف إن كان (هشام) أم عمى أم الدكتور !!

وفتحت عينى، لأجد (سامى) قد فتحها هو الآخر، وحدق فىَّ قائلاً :

ـ ربما لا أملك لسانًا لبقًا كلسان الدكتور (مشهور)، ولا أقدر على نظم حديث منمق متسق كحديثه .. لكن كل ما أستطيع قوله هو التهنئة .. أنتِ تملكين طاقة روحية من نوع خاص جدًا يا آنستى .. نوع نادر ولا نلقاه كثيرًا .. لا يتمتع به إلا ذوى الحظوة والموهبة العميقة الجديرة بمهام عظيمة وفذة .. صدقينى لو قلت لكِ إنك تصلحين وسيطة روحية ذات حضور طاغ، كل ما تحتاجين إليه هو بعض التدريب الروحى لاستكشاف مجاهل نفسك أكثر وأكثر !

قال (هشام) فى سخرية :

ـ سيكون الأمر ذا نفع مهول لك فى عالم الصحافة !

والتقط الدكتور منه خيط السخرية ليقول بلهجة ذات مغزى واضح :

- ولم الصحافة وقتها يا بنى ؟! إن أصحاب هذه المهن يكسبون كثيرًا !

والتفت إلى (سامى) مرة أخرى ليردف سائلاً :

- .. أليس كذلك يا سيد (سامى) ؟!

لا أدرى إن كان (سامى) قد فطن لما فى العبارة من تعريض ، لكنه قال دون أن تنمحى ابتسامته العريضة :

- من حقها أن تعرف جدوى مواهبها يا دكتور !

سأل عمى (ممدوح) ببراءة :

- هل حقًا يمكن للمرء أن يستفيد من أمر كهذا ؟!

قال (سامى) :

- جرب وستعرف بنفسك ..

قال (هشام) فى حدته المعهودة :

- أنا لا أراها إلا محض دجل وشعوذة !

قال (سامى) ناظرًا إليه :

- هذا رأيك الخاص يا سيدى !

تعالت نبرة الدكتور (مشهور) الجهورية وهو يقول :

- يا سيد (تيمور) ..

ولم أسمع أنا بقية ما دار من الحوار ..

لم أكن مهتمة ، ولم يكن فى عقلى مساحة شاغرة لترف كهذا ..

لقد اغتسلت فى بحيرة الحقيقة أخيرًا ..

وعرفت كل شىء ..

نظرت إلى النور الذى يشع من خلف الخصاص ..

ورأيت وجه (سعاد) المضىء يبتسم لى فى حنان وأمومة ..

وبجوارها رأيت الوجه الغارق فى الظل ..

وابتسمت له أنا فى امتنان شديد ..

وفى ركن ما من عقلى ، كانت ملحوظة ما تدوى كجرس بعيد ..

(سامر) .. (س) .. السيد (س) .. أخى الذى مات رضيعًا ..

أيمكن أن ؟!

كل شىء ممكن ، ومهما اقتربت الحقيقة ستظل بعيدة ..

لأن العقل كثيرًا ما يضلل صاحبه !!

* * *

بين هنا .. وهناك ..

وحدى كالمعتاد ..

جالسة فى الشرفة أراقب الشمس المائلة عند حافة الغروب البعيدة ، ليس معى إلا قدح النسكافيه الخالد ، وألبوم الصور القديمة ، ونبرات (عبد الحليم) الحزينة الحالمة ..

كل كلمة حب حلوة قلتها لى

كل همسة شوق بشوق سمعتها لى

تجربة لم أتصور أننى سأخوضها فى يوم من الأيام ..

تجربة كشفت لى الكثير مما لم أكن أتصور حدوثه بالنسبة لأقرب أقربائى ..

أبى .. وأمى ..

والحنان والعطف والقلب الحنين

والأمانى كلها نولتهالى

ربما لانتصور جميعًا أن فى حياتنا مكانًا تختبئ فيه كل هذه الأسرار منتظرة إشارة واحدة تسمح لها بالانطلاق ..

ربما نسمع قصص الآخرين ونمصمص شفاهنا شفقة وحزنًا وتعاطفًا ، دون أن يخطر ببالنا للحظة أن قصة أكثر إثارة لكل هذه المشاعر تكمن تحت جلودنا نحن ؛ كبؤرة خاملة قد تنشط فى يوم من الأيام ..

ربما لهذا نحب سماع قصص الآخرين ، ومشاهدة تراجيديات السينما وقراءة رومانسيات الأدب المفجع ، كنوع من التطهر وإبعاد الشبهة عن الذات ..

ربما ..

الليالى سنورة وأيام هنية

شفت وياك الهنا شفته بعنيا

لكن الحياة أقوى من كل شىء ..

وها هو تيارها يجرف فى طريقه كل الأحزان والأفراح والذكريات ، ويستمر فى طريقه الأبدى المحفور منذ نزل (آدم) على الأرض ، وحتى مصبه فى بحر النهاية ..

عاد أبى من سفره ، ولم يجل بباله للحظة أننى قد عرفت شيئًا عن الماضى البعيد الذى مازال يحارب لنسيانه بالعمل وإهمالى !

شفت جنة بالمحبة منورة لنا

وانت جنبى زى قلبى تخاف عليا

السيدة (ألفت) عادت من سفرها واستقبلتنى بالترحاب فى مكتبها عندما دخلت حاملة تحقيقات ومحاولات صحفية جديدة ..

لقد نسيت موقفى المخزى معها فى خضم مشاغلها ، وبسماحة تحسد عليها ..

هل أخطأت بنشر خبر وفاة أخى ؟! هل أخطأت بنشره فى هذا القالب ؟!

لم أعد أشغل بالى بأمور حدثت منذ أكثر من عشرين عامًا ..

والمودة والكلام الحلو بيننا

يا حبيبى ضحكة رايحة وفرحة جاية

عمى (ممدوح) عاد ينغمس فى عمله وتربية (حمادة) فى (الإسماعيلية) ، ومازلت أمنى نفسى بزيارته ، لكنها حياة العاصمة التى لاترحم ..

ألن يتزوج هذا الرجل ؟!

يا حبيبى عشت أجمل عمر فى عنيك الجميلة ..
عشت أجمل عمر

أوصل الأيام مع الأحلام بغنوة شوق طويلة ..
للرموش السمر

الدكتور (مشهور) لم أره بعدها ، و (سامى تيمور) حادثنى هاتفيًا أكثر من مرة ليقنعنى بجدوى العمل كوسيطة روحية .. لكنى حاولت إقناعه بأننى لن أصلح ..

ولن أقتنع !

بدأ ييئس أخيرًا لكنه مازال يتصل بى من آن لآن !

يا حبيبى كفاية أحبك

وارتوى من عطف قلبك

عدت إلى المذاكرة والكلية والاستعداد للامتحانات ، وبدأت أستعيد توازنى النفسى فلم أعد أرى أمى إلا فى ثنايا الألبوم ذى الغلاف الأخضر الصلب .. العتيق ..

وأنسى بكره .. وأنسى بعده

وافتكر بس انى جنبك

(نهى) مازالت فى الغالب تحاول تحضير روح أمها ،

ربما حملتها عربة (العباسية للصحة النفسية) قريبًا لتقيم بين جدرانها بصفة مستديمة .. (صلاح) مازال يسهر ويواظب على الإدكان والفشل، ذكرونى أن أتصل بذوية المسافرين فى أقرب مناسبة .. أما (جميلة) فقد عدت أراها فى الكلية بنفس غموضها وتحفظها المريب ..

لم يبق إلا (هشام) .. لقد عدنا نتشاجر ونتصالح كما يفعل أى خطيبين يعرفان جيدًا ما يفعلانه !

أما السيد (س) .. فأنا واثقة من أنه سيعاود الظهور قريبًا ..

والليالى تعمل إيه فينا الليالى
حبنا أكبر وأكبر من الليالى
يا حبيبى

لأكتفى بهذا القدر من الذكريات اليوم .. ورائى كم رهيب من الدروس التى تنتظر من يذاكرها .. أسابيع قليلة وتبدأ امتحانات السنة النهائية الحاسمة ..

سأغلق الألبوم وأعد فنجانًا آخر من النسكافيه (لزوم سهر الليالى فى طلب العلا) وأصحب (حليم) معى إلى غرفتى ..

سأبدأ اليوم فى مذاكرة مادة (الـ ...)

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

٢٠٠٢/٣٥٠٣

رقم الإيداع :
٩٧٧ ـ ٢٦٦ ـ ٧٤٦ ـ ٠

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

فى كل رواية متعة دائمة !!

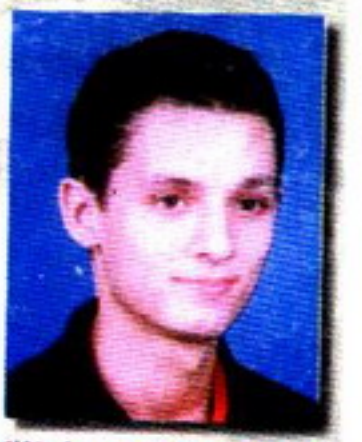

محمد سليمان عبد المالك

مغامرات "س"

أخوة الدم

الجزء الثانى

فى الطريق رأيت (قصر البارون) ..

شامخ لا يزال فى موقعه المميز على الطريق ..

غارق فى الظلمة والظلال ..

قد يوحى مظهره بالرعب والغموض ..

لكن ..

ليس من سمع كمن رأى ..

على الإطلاق ..!

مطابع سلاح التلميذ

الثمن فى مصر ٢٠٠

ومايعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم